حكايا الساحة

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: حكايا الساحة
تـأليـــــــف: د. خالد وشاحي
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القـطـــــع: 14*20
سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 1613 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 597 - 8

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

حكايا الساحة

مجموعة قصصية

د. خالد وشاحي

حكايا الساحة، تحكي مجموعة من القصص، أبطالها وافتهم المنية، يسرد سيرتهم وحياتهم المُعَزّون داخل أروقة الساحة أثناء تأديتهم لواجب العزاء فيهم، وكل ما جاء من صراع لأبطال حكايات الساحة ما هو إلا إبداع وإفساح لخيال الكاتب، ولا يمت بصلة للواقع، وما يتوارد إلى ذهن القارئ من تشابه في الأحداث أو الأسماء لا يعد سوى توارد خواطر ليس على الكاتب تبريرها.

قريتنا إحدى قرى الصعيد الجواني، وفي زمن أشرف على نهاية الألفية الثانية، القرية بها قبائل مختلفة ومتعددة العائلات، قبلي القرية (جنوب) نجد قبيلة الفولية، أما على أطراف القرية فنجد قبيلة السعدنية نسبة إلى جدهم السعدني الكبير، أما أبناء قبيلة الحوايتة فيعيشون في بحري (شمال) القرية، يمتلكون الأراضى الشاسعة، وأيضا لقبوا نسبة إلى جدهم إبراهيم الحوتي، كما أن هناك عائلات فروع من القبائل الأصلية مثل عائلة فاوي وعائلة (أبو العطا) وغيرهم.

في وسط القرية، يعيش أهل القرية من بيوت متعددة وعائلات لا تنتمي لقبيلة بعينها، وهناك الإخوة الأقباط الذين ينتشرون ببيوتهم ودكاكينهم في كل شارع ودرب من دروب القرية.

****

على أطراف القرية توجد الجبانة وهي المكان الذي يُدْفَن فيه أموات القرية، ومنها يتحرك أهل المتوفى والمعزين من أهالى القرية والقرى المجاورة إلى الساحة، التي تمتد على مساحة تقارب النصف فدان، تحدها الأسوار العالية؛ لحجب غرف عديدة داخل السور، بعضها يستخدم كمُضيَفةٍ، لإقامة الغرباء، الذين يحضرون للعزاء من القاهرة والإسماعيلية وغيرها من مدن مصر المحروسة.

بعض تلك الغرف يستخدم لمبيت أهل المتوفى، المحظور عليهم العودة لبيوتهم إلا بعد انتهاء مراسم العزاء التي تمتد أحيانا إلى أسبوعين كاملين .

داخل مبنى الساحة يوجد العديد من الغرف مخصصة للمقرئين، وكذلك لبعض الشخصيات التي تحضر العزاء من أعضاء المجالس النيابية والقضاء ورجال الشرطة، وتتميز تلك الغرف عن باقي الساحة بوجود المراوح، وأجهزة التكييف الصحراوي والطاولات الخشبية ذات المفارش الزرقاء. ويقدم فيها ألوان من القهوة المحوجة وزجاجات المياه المعدنية وعلب المناديل الورقية.

أما باقي الساحة فهي مرصوصة بالكنب البلدي المصنوع من الخشب الأبيض وخشب الأتل، الكنبة لها مسندين ومغطاة بكليم صوف، وعلى الكنبة يوجد عدد من المخدات القطنية (تكايات) ليستند عليها المعزون الذين يمكثون لساعات طويلة أثناء العزاء، وتستخدم الكنبات والتكايات للنوم بين الظهر والعصر بعد تناول الغداء داخل الساحة .

****

تقدم صوانى الغداء للمعزين الأغراب في الساحة من ألوان مختلفة من الخضروات وقطع اللحم وأطباق الأرز، كل صينية بها خمسة أطباق مع رغيفين أو أكثر من الخبز الشمسي المكتنز .

في حين أن أهل المتوفى وجيرانه فمحظور عليهم تناول اللحوم طوال الأربعين يوماً الأولى بعد الوفاة، ويكون غذاؤهم طوال اليوم من قوالب الجبنة الخضراء (القريش) والفول والعدس والبيض المقلي في طواجن، وبعض البطاطس والباذنجان، وأحياناً في

الصباح الباكر نجد ماجور(وعاء كبير من الفخار) مملوء باللبن المخثر (رايب)؛ ليتناوله أهل المتوفى مع العيش الشمسي برفقة أطباق من العسل الأسود .

****

توجد زاوية صغيرة لإقامة الصلاة في الجانب الأيمن من الساحة أما الغرف حول الساحة، فيفصلها عن الساحة عدد من السلالم لا يتعدى الخمس درجات، وتقام واجبات العزاء في الساحة لكل أهل القرية دون النظر إلى انتماءاتهم القبلية.

كثيراً ما نرى أهل القرية منتشرين جلوساً على مدخل القرية، على الطريق السريع في انتظار وصول المتوفى بسيارة نقل موتى، أو موكب من السيارات حاملة الجثمان، بعد أن وافته المنية في القاهرة أو الإسكندرية.

الساحة في قريتنا، تستقبل بين الحين والآخر متوفى من أهل البلدة، ليبدأ المعزون في سرد سيرة المتوفى ونسمع الحكايات، ومع كل متوفى جديد نسمع المزيد والمزيد.

السرداب

(١)

عصر يوم شديد الحرارة من أيام شهر أغسطس في صعيد مصر، في قريتنا المتاخمة للصحراء، وداخل دروب القرية الضيقة، وبيوتها المتراصة بجوار بعضها بعضا، تفصلها شوارع ضيقة؛ لحماية البيوت من الشمس الساطعة طوال النهار، لعل حوائط البيوت تحجب حرارة الشمس وتقي البشر والبهائم من شمس الصعيد الحارقة .

وسط الدروب نجد الشيخ إبراهيم بقامته الطويلة، وجلبابه الأبيض النظيف وأعلى الرأس عِمَّة (أو شاش كما نطلق عليه) من القماش الأبيض الأقرب إلي الحرير، منتعلاً صندلاً من الجلد، تخرج من فتحاته أصابعه الغليظة، وفوق عينيه نظارة من الزجاج الأسود، تضيف لمظهره بعض الهيبة والوقار، يتجول بالدروب متطلعاً إلى البيوت، مقترباً بهدوء من منزل حسن أبو يوسف ليبدأ في الصياح :

- يا أهل البيت يا سيادنا يا أهل البيت .

تسمعه نجية زوجة حسن أبو يوسف، ذات الملامح السمراء الجميلة الفارعة الطول، بعينيها السوداويتين اللامعتين وجسدها الممشوق، مرتدية قميصاً أخضر اللون بحمالات صغيرة، تقاوم بشدة خروج نهديها خارج القميص، الذى يظهر ساقيها وجزءاً كبيراً أعلى ركبتيها .

كانت حرارة الصيف تسمح لها بالجلوس بتلك الملابس داخل دارها، منهمكة في فرز وتنقية الأرز، وبجوارها ابنتها بهية الطفلة بعمر لايتجاوز الستة أعوام، بشعر قصير مُلْتَوٍ بشدة وبشرة سمراء تميز معظم أطفال القرية، ولا يقطع عليهم خلوتهم إلا صوت الغريب وصوت الباب الخشبي يصرخ بشدة من قبضة يد الغريب عليه.

- يا أهل البيت.

ترد عليه بهية الصغيرة، من خلف الباب وأمها منزعجة من صياحه!

- أبويا في الحرجة (الحقول البعيدة عن بيوت القرية) شغال، إنت مين، وعاوز إيه؟

ترد أمها مخاطبة بهية:

- قولي له الله يسهلك صاحب البيت مش موجود!

يرد الشيخ من الناحية الأخرى:

- قولي يا بنيه أبوكي فين، أنا عاوزه في حاجة مهمة.

- الله يسهلك، أبويا مش حييجي غير بعد صلاة المغرب.

- خلاص أنا حستناه هنا على الدكة اللي قدام البيت، جنب الباب، بس والنبي يا بنيه هاتي لي كوز ميه باردة.

تتدخل نجية في الحديث، بعد أن استفزها ذلك الغريب المقتحم هدوء منزلهم، وتحدثه من خلف الباب الخشبي العتيق:

- ياعم الحاج، قلنا لك صاحب البيت في الحرجة، ومش حيرجع غير بعد المغرب.

- يا ست أنا غريب من بحري، معرفش حد في بلدكم، وعاوز صاحب الدار في مصلحة مهمة!

- الله يسهل لك.

- إنتي فاهمة غلط أنا مش شحات، أنا جاي من بلاد بعيدة مخصوص لصاحب البيت ده!

- جاي ليه وعاوز إيه من صاحب البيت؟!

- أنا جاي في مصلحة مينفعش أقولك عليها، أنا عاوز صاحب البيت وعاوز ميه باردة، الجو حر في بلدكم.

- عموما إحنا أهل كرم حنبعت لك مع البنية كوز ميه بارد، وكوباية شاي كمان، وخليك قاعد جنب البيت لغاية صاحب الدار ما ياجى من الغيط، خدمة تانية؟؟؟

- لا يا ست كتر خيرك.

تقوم نجية بإعداد كوب شاي للغريب ومعه كوز مياه باردة من الزير، لتخرج بهية الصغيرة لتناوله للغريب وتدخل مسرعة إلى أمها.

- مين الراجل ده يا بهية شوفتيه!!.

- أيوه يا مه مش من أهلنا، راجل طويل ولابس جلابيه بيضه وشاش أبيض وشكله كده يامه يخوف!

- يخوف إزاي يا بت، شفتي إيه خوفك منه؟

- يا مه لابس نضاره سودا لما قلعها حسيت إن عنيه بتبص لي جامد، خفت منه ودخلت على طول!

- إنتي كده قلقتيني، أنا حقفل الباب بالترباس الخشب، وانتي تروحي جري على الحرجه تندهي أبوكي وعمك سعيد، وتقولي لهم في واحد غريب قدام البيت، مش عاوز يمشي، وأمي وحدها في البيت.

- طب يا مه حطلع ازاي والراجل ده قاعد قدام البيت؟! خايفة يمشي ورايا!

- أنا حطلعك من باب زريبة المواشي، تطلعي من الدرب على الحرجه مش حيشوفك ولا يحس بيكي، بس بسرعة البسي حاجة في رجلك وتعالي أطلعك.

- حاضر يا مه، أنا حروح لأبويا طوالي.

****

تخرج بهية من باب الزريبة الخلفي، وتغلق نجية باب الزريبة؛ خوفاً من هروب الجاموسة والماعز، ونلمح بهية مسرعة في الدرب متجهة إلى الحرجة، تصلها بعد مدة وهي مرهقة، والعرق يتصبب منها والتراب يعلو وجهها، سقطت كثيراً أثناء هرولتها لبلوغ الغيط بسرعة.

تلمح أباها داخل الغيط، يبدو أنه يحش بعض أعواد الذرة للبهائم.

- أبويا.. يا با تعالَ بسرعة.

يسمعها حسن أبو يوسف وسعيد أخوه وشقيقه الأصغر، وهما يجلسان داخل الغيط منهمكين في حش أعواد الذرة للبهائم، معهما بعض من البرسيم الحجازي؛ ليضعاه فوق حمار كل منهما ويهرولان لنجدة الصغيرة بهية.

يقترب والدها منها:

- خير يا بت حصل حاجه لأمك؟ إيه اللى جابك دلوقت؟!

- يا با الحق في واحد غريب جه من شويه، ومش عاوز يمشي من قدام الدار وأمي قالت له:

إنك مش في البيت، وبرضه قاعد قصاد الدار.

- مين هو ده؟ من بلدنا، وولد مين ده!؟

- لا يا با ده من بحري، غريب مش من نواحينا، أمي عملت له شاي وأنا طلعت بالشاي، بس مرضيش يمشي، وأنا خفت منه وقلت لأمى!

- طب وازاي تسيبي أمك في البيت وتيجي؟!

- إحنا خايفين منه، أمي طلعتني من باب الزريبة؛ علشان ميشوفنيش، وجيت علشان آخدك ترجع تشوف مين ده.

- يا سعيد اربط الحشيش على الحمير، ويالا بينا، خلينا نشوف مين ده، وعاوز إيه مننا وازاي يخبط على الدار واحنا مش فيه!

يهم سعيد بوضع البرسيم والذرة على حماره، ويأخذ حسن بنته على الحمار مسرعين إلى الدار؛ لمقابلة الغريب.

أمام منزل حسن أبي يوسف، يتدلى حسن مع ابنته من فوق الحمار، ونلمح من خلفهما سعيد وحماره محملاً بالبرسيم وأعواد الذرة.

ينزل حسن متحفزاً وهو في بدايات الأربعين من العمر، بجسد ممشوق وأيدي عريضة من حمل الفأس طوال اليوم، وجسد مصبوغ بسمرة داكنة عليها علامات، حفرتها الشمس والشقاء ترك بصماته على وجهه.

ينهض الشيخ إبراهيم ماداً يده بالسلام ليصافحه حسن، بينما تدلف بهية إلى داخل البيت مرتعدة؛ لتطمئن أمها بوصول النجدة لهم.

- البنية بتقول إنك مستني من بدري وعاوز صاحب الدار، أنا صاحب الدار.

- متآخذنيش إني جيت وخبطت على بابك من غير معاد، وأنتم أهل كرم، وأهل بيتك قاموا بالواجب.

- برضه أنا مش فاهم إنت مين وعاوز إيه؟!

- أنا اسمي الشيخ إبراهيم من الشرقية من بلد نواحي صان الحجر، أنا جاي من آخر الدنيا قاصدك في مصلحة كويسة ليَّ وليك.

- مصلحة إيه؟! إحنا معندناش غير الزرع والبهايم.

يحضر سعيد بعد أن قام بربط حماره وإنزال البرسيم والذرة أمام الزريبة، بينما ملامحه غاضبة من الغريب المقتحم منزل شقيقه مهدداً هدوئهم وسكينتهم.

- عاوز إيه؟ وبتخبط ليه على بيت أخويا حسن؟

- استنى يا سعيد لما نشوف عاوز إيه خلينا نسمعه!!

- أنا ياحاج حسن وياعم سعيد اسمى الشيخ إبراهيم، جاي مخصوص للبيت بتاعكم ده من الشرقية.

- أيوه في إيه في البيت بتاع حسن أخويا!

- أنا حقول لكم المصلحة بس ياريت محدش في البلد دى يعرف حاجة عن اللى حقوله.

يبدو سعيد منفعلاً ويهم بتناول عصا بجواره مخاطباً الشيخ إبراهيم:

- مصلحة إيه تاني ما تقول يا بو عمو يا تفارقنا!.

- بيت حسن أخوك ده، تحته سرداب فيه كنز ولَقيّه كبيرة، وأنا معاي الخريطة بتاعته، أنا جيت على المكان بدون ماعرفكم، ولي يومين مسافر علشان أوصلكم.

- يعنى إيه سرداب وكنز؟!

- بيتك ياحاج حسن تحته سرداب غويط في بطن الأرض، في نهايته مقبرة ملكية فيها كنز محدش لمسه!!

- وانت عرفت ازاى إنه تحت بيتى؟!

- الخريطة كان فيها كذا موقع، كلهم طلع منهم مقابر ملكية عليها خرطوش، وجواها كنوز دهب وتماثيل كلها دهب.

يندهش حسن وأخوه سعيد من ثقة الشيخ إبراهيم في وجود الكنز، ويهم حسن بإدخاله إلى المنزل، وخلفه سعيد أيضا تاركين البرسيم والذرة أمام زريبة البهائم.

- اتفضل اقعد ياشيخ إبراهيم هنا في أوضة المسافرين، ارتاح حنجيب الغدا وناكل لقمة مع بعض، ونكمل كلامنا، قوم ياسعيد هات الغدا من أم بهية.

****

يدخل سعيد بصينية كبيرة مغطاة بفوطة وخلفه بهية تحمل قلةَ بها مياه باردة، ليرفع حسن الغطاء عن الصينية فنجد أطباق بطاطس مطبوخة بالطماطم وكذلك أطباق من الأرز ورغيفين من العيش الشمسي الكبير الحجم، يتوسط الصينية طبق من الأرز بداخله عدد قليل من قطع اللحم.

- اتفضل مد إيدك ياشيخ إبراهيم حاجه كده على ما قسم.

- دايما عامر ياحاج حسن، والله أنا لى يومين مسافر على الميه والشاي، مفيش حاجة نزلت جوفى!

- طب سمّي بالرحمن وكُل، واحكي لنا ازاي عرفت مكان بيتنا!

- الخريطة اللي معاي فيها كل التفاصيل، المكان والبلد والطريق.

- طب هي فين ممكن نشوفها؟

- لا يا حاج حسن دي مش خريطة ورق ولا جلد، دي خريطة بتظهر للموعودين اللي مفيش بينهم وبين ربنا إلا كل عمار، أنا الحمد لله بتظهر لي الخريطة والمواقع محددة كأنها مرسومة قدامي.

- وانت ياشيخ إبراهيم طلعت كنوز قبل كده؟!

- الحمد لله وبفضله أنا في بلدنا نواحي صان الحجر طلعت أكتر من خمس كنوز كلها مقابر ملكية، وأصحاب البيوت اللي حفرنا فيها دلوقت من أغنى أغنياء الشرقية، عايشين في قصور، والفلوس عندهم مالهاش عدد.

- طب وازاى حنطلع الكنز ده من تحت البيت؟

- خلينا بس نشيل الأكل ونشرب الشاي، وأنا حفهمك على كل حاجة.

- تمام، يا بهية تعالي خدي الصينية، وهاتي إبريق الغسيل وخلي أمك تعمل الشاي.

تدخل بهية إلى غرفة المسافرين تحمل إبريق به مياه وتحته وعاء لاستقبال المياه بعد اتساخها وكذلك فوطة وصابونة.

يغتسل كل من الشيخ إبراهيم أولاً، ثم حسن أبو يوسف ثم سعيد شقيقه، يقوم سعيد برفع الصينية؛ لإدخالها إلى نجية، لتأكل هي وابنتها ما تبقى من الطعام. وتقوم سريعا بصب أكواب الشاي المحلي بسكر زيادة والمغلي على النار عدة مرات طبقاَ لمزاج زوجها حسن أبي يوسف.

- صينية الشاي ياعمي سعيد، تعالَ خدها تقيلة عليَّ.

- جاي يا بنيه استني أحسن تندلق عليكي.

يقوم سعيد بإحضار الشاي وصبه في الأكواب، بينما يخرج الشيخ إبراهيم علبة سجائره من جيبه، ويهم بإعطاء حسن وسعيد سيجارتين، ويرفض سعيد الذي لا يجرؤ على التدخين أمام أخيه الأكبر. بينما يخبره حسن أنه يشرب الشيشة، والتي سوف تعدها له أم بهية لاحقاً.

- طيب فهمنا إيه حكاية الكنز اللي مدفون تحت بيتي ده، وحنعمل إيه علشان نطلعه؟!

- بص ياحاج حسن أنا حقوم معاكم بعد العشاء وأعزم وأقرا علشان أحدد بالضبط نحفر فين. إنما بالنسبة للشغل في المصلحة دي بيبقى متقسم على تلاته، الشيخ بياخد التلت، وصاحب البيت التلت، والعمال والرجاله اللي حتشتغل حتاخد التلت.

- رجالة إيه ياشيخ إبراهيم!، مينفعش حد غريب يخش الدار ولو حد من البلد عرف بالموضوع ده ممكن الحكومة تعرف، ونروح في داهية.

- متقلقش ياحاج حسن أنا ممكن أجيب رجاله من الشرقية، يحفروا ويطلعوا الكنز في أسبوع ونتفض قبل ما حد يحس بينا.

- مينفعش حد غريب يدخل الدار، أنا ولادي هنا مينفعش حد يشوفهم، أنا وسعيد أخويا نحفر كل يوم بعد العشا؛ علشان محدش ياخد باله واللي حياخدوه الأغراب إحنا أولى بيه.

- خلاص اللي يريحك، بس أنا مليش في الحفر، أنا حعزم وأقولك على المكان اللي حتحفر فيه، واستنى لغاية ما تفتح المقبرة، وتديني التلت وأتوكل على الله.

- خلاص توكلنا على الله أنت تقعد في الأوضه دي، والحمام - الله يعزك - آخر الطرقه جنب زريبة المواشي، لو عاوز تدخل الحمام أيّ وقت تنده على بهية، وقوم بينا خلينا نشوف مكان الحفر، علشان نبتدي بإذن الله.

- توكلنا على الله.

****

يقوم الشيخ إبراهيم وحسن وسعيد يتجولون في البيت، بينما الشيخ إبراهيم يقرأ الأذكار والأدعية ويتجول من مكان إلى مكان، وحسن أمامه حريص ألا تظهر نجية أو يلمحها الشيخ إبراهيم، ويجعله ينتظر مرات ومرات؛ حتى تختفي نجية، ويدخل الشيخ إبراهيم ومع ارتفاع صوته بالأذكار، وكلمات مدد مدد، يتجه إلى زريبة المواشي بجوار الحمام ليدخلها، ويقف متسمراً تماما داخل الزريبة، بجواره جاموسة وعدد كبير من الماعز والخراف.

- الحمد لله، مدد يا سيدي مدد ،كنزك تحت رجلك ياحاج حسن!.

- هنا في زريبة المواشي!

- أيوه تحت رجليك مدد يا سيادنا مدد.

- طب والمواشي دي نوديها فين؟

- اربطها، بِيعها، ده شغلك، كنزك تحت رجليك، مدد.

- خلاص توكلنا على الله، ياسعيد: اربط الجاموسة بره الزريبة، ونُطلُق المعيز والخرفان في البيت، ويالا ننضف المكان ده، وهات فاس وكوريك وكام غلق (مقطف).

- ماشى ياحاج حسن، بس خلاص كده، إنت حتكمل في الحكايه دي؟!

- أيوه يا سعيد نفذ اللي بقولك عليه، أنا حكمل مع الراجل ده، وربنا يكرمنا ونْقِبّ يا سعيد على وش الدنيا.

- اللي تؤمر بيه يا حاج حسن، أنا معاك في كل حاجة عاوزها، عمري ما اقدر أقولك لأ. إنت أخويا الكبير وانت اللى مربيني.

- يا سعيد ده خير جاي ليَّ وليك، واحنا ملناش غير بعض.

- أنا حسيبكم وأروح الأوضه أريح شويه، والصبح أشوفكم بإذن الله.

يجلس الشيخ إبراهيم في الغرفة مستمتعا بطعام الست نجية الشهي وملابس حسن أبو يوسف النظيفة، متأملاً في الغرفة النظيفة محدثاً نفسه: الناس في الصعيد ناس طيبة عن حق، الناس صدقت إني شيخ، وإن تحت بيتهم كنز وسايبين أرضهم وزرعهم ونازلين حفر في الزريبة!

بس القعده كده طولت عندهم، أنا ليَّ أسبوع عاوز ألاقي حتتين صيغه ولا شوية فلوس محوشينهم، أخدهم وأخلع من البلد دي، هما مشغولين في الحفر محدش حيحس بيّ، بس المشكلة إن الست نجية دي باين عليها فرسه، أكلها زيّ العسل، لمحتها مرتين تلاته، فرسه بجد تستاهل الواحد يقعد عندهم أسبوع كمان، بس إزاى حعرف أوصل لها، ده جوزها وبنتها مش بيسيبوا البيت خالص.

في الليل الصامت إلا من أصوات الحفر وصوت الفأس ينخر في أرض الزريبة، يسمع صوت سعيد قاطعاً خلوته، وسعيد ينادي بشدة وهو يقترب من الغرفة.

- الْحَقْ ياشيخ إبراهيم إلحقْ تعال شوف!

- خير يا سعيد حصل حاجه لحسن؟!

- لا ياشيخ إبراهيم، مبروك لقينا سرداب وسلالم، تعال شوف الكنز، قرّب ياشيخ إبراهيم، ربنا كرمنا والسلالم ظهرت!!

يخرج إبراهيم مع سعيد وهو في دهشة وحيرة من أمره، غير مصدق لما سمعه من سعيد، ليقف أمام الحفرة داخل الزريبة، وفي الأسفل حسن ممسكا بكلوب مضيء، نرى من خلاله سلالم منحوتة ومغطاة بالتراب.

ينظر لها الشيخ إبراهيم، ولم ير مثلها طوال حياته!! وكيف ظهرت والحفرة عميقة أكثر من خمسة أمتار؟!

- شوف ياشيخ إبراهيم ،الفاس خبطت في صخره، لما نضفنا حوالين الصخره، طلعت درجات سلم.

- بسم الله ما شاء الله، ده سرداب كبير وجوين، إن شاء الله الكنز قرب، فرجه قريب إن شاء الله!

- كده إنت تمام يا شيخ إبراهيم، بس قول لنا المقبرة اللي فيها الكنز، حنلاقيها بعد حفر كتير؟

- الله أعلم، بس كده خلاص إحنا بنشتغل في السليم، كملوا حفر وطلعوا التراب كله بره، علشان التراب الكتير ده خطر عليكم.

- ماشى ياشيخ إبراهيم، مبروك علينا وعليك الكنز.
- أنا حروح الأوضه أعزم وأقرا أذكار، علشان ربنا يكرمنا ونقرب من الكنز.

****

الشيخ إبراهيم عائداً من الزريبة إلى غرفته، غير مصدق لما حدث! محدثاً نفسه: إزاى في سرداب وكنز في الزريبة، أنا قاصد أقضي يومين واكل شارب، وأهرب بحتتين صيغة أو أي فلوس ألاقيها، زي ماعملت كده كذا مره؟، إزاى طلع في سرداب وكنز، وكمان سلالم وسرداب وكل ده حقيقى؟!

أهرب ولا استنى، يمكن كنز بجد، آخد تلته وارتاح بقية عمرى!، طب والناس دي بعد ما تحفر أسبوع كمان، وميلاقوش حاجه، حيسكتوا ولا أهرب ساعتها، ولا أهرب دلوقتى؟.

ينطلق صوت أذان الفجر لينام الشيخ إبراهيم، بينما حسن وسعيد يواصلان الليل بالنهار، وكأن ظهور سلالم السرداب أعطاهما قوة وإرادة وتصميم على إكمال الحفر.

بينما نجية زوجة حسن، تقوم يومياً بذبح الطيور وأحياناً جدي صغير، لتقضي يومها بالطبخ، وكل ثلاثة أيام تحمي الفرن؛ لإعداد العيش الشمسي.

الشيخ إبراهيم عيناه لاتفارق جسدها عندما يراها ذاهبة أو عائدة من الحمام، يتأمل في جسدها الممشوق و يشتهي القرب منها، وإن كانت تلاحظه وتخشى أن تخبر زوجها، وكانت تسمع خطواته داخل البيت أثناء وجود حسن وسعيد داخل الزريبة، لذلك تحرص على إغلاق باب غرفتها هي وابنتها بالترباس!.

(٢)

يقوم الشيخ إبراهيم مع حرارة صيف الصعيد، ويخرج من غرفته مرتدياً سروالا أبيض طويلًا، أعلاه صديري قماش بدون أكمام، ليقف أمام غرفة المسافرين متجها إلى الممر، وبنهايته الحمام والزريبة.

يلمح نجية تخرج من الحمام، وعندما تراه أمامها تسرع إلى غرفتها، ويلاحقها بنظراته التي لا تفارق مؤخرتها وساقيها.

تدور في رأسه الأفكار بعد أن أشبع بيتهم بحثاً عن ذهب أو نقود يسرقها ويرحل، لكن نفسه تحدثه بأن يظفر بنجية، وأن تأتي إليه في إحدى الليالي التي ينشغلون فيها بالحفر أو في الصباح عندما ينامون.

يتحرك متجهاً إلى الزريبة بعد أن يقضي حاجته بالحمام ليفاجأ بما يراه داخل الحفرة!

- ما شاء الله يا رجاله! ده إحنا كده أكتر من عشره متر تحت الأرض!

- أيوه يا شيخ إبراهيم، إحنا كده كشفنا عشرين درجة سلم كلها منحوته جوه الصخر، الظاهر ده سرداب كبير.

- دي غرفة دفن ملكية، إن شاء الله، الخير كتير ويكفي الكل، أنا حدخل أكمل نومي، أنا قلت أطمن عليكم بس.

- استنى ياشيخ إبراهيم، السلالم دي شكلها خلصت، السرداب خلص، فيه سده قدامنا!

- طب الحمد لله، ده باب المقبرة، خلينا ننضف التراب كله ونطلعه بره، علشان نطهر المكان وربنا يكرمنا ونوصل لباب المقبرة.

- يا شيخ إبراهيم، السده دي شكلها باب عليه نقش فرعوني، انزل شوف بنفسك كده، وقول إحنا فين بالظبط.

- لا يا حاج حسن نضف الدنيا كلها، وبالراحه نشيل كل التراب ده، أنا آجي بكره أشوف البوابة والسدة، وأشوف ده باب مقبرة ولا يكون باب وهمي، أصل المقابر بتاعة جدودنا دي فيها العجب!

- ماشي يا شيخ إبراهيم، إحنا مش حنبطل شغل غير الصبح.

- اشتغلوا بحرص وربك يسترها عليكم.

يعود الشيخ إبراهيم إلى غرفته، تراوده الأفكار، وهو في حيرة من أمره بعد أن انقلب السحر على الساحر، وأصبح هناك كنز حقيقي، لا يدري أو يعلم كيف يتم استخراجه؟!

هل يهرب الآن دون أن يشعر به أحد؟ هل ينتظر ربما يكون الكنز موجوداً دون تعب أو جهد منه؟! هل يتسلل إلى غرفة نجية، التي انشغل عنها زوجها بالكنز، وله عدة أسابيع يحفر في الزريبة ولا يقترب منها؟

هل تكون الليلة هي فرصته في الظفر بنجية ذات الجسد الممشوق والأرداف العريضة؟

هل تقاوم نجية وتصرخ؟ أم تستجيب لرغباته؟! وتستمتع معه منتقمة بذلك من زوجها المهمل لها بحفر السرداب، يتسلل الشيخ إبراهيم إلى فراشه، لعل النوم يأتي له بحلول وأجوبة على تساؤلاته!.

****

يهل صباح جميل على البيت، وبعد إفطار الشيخ إبراهيم من الجبن والعسل والفطير الساخن والذى أحضرته له الطفلة بهية. يذهب إلى الزريبة، ليجد سردابا طويلا تحت الأرض، لايقل عمقه عن اثني عشر متراً، تم تنظيفه بعناية فائقة من حسن وسعيد.

يتدلى فيه الشيخ إبراهيم، ليجد سدة صخرية راقدة بعد نهاية درجات السرداب، يحاول إبراهيم أن يجد أي منفذ؛ ليرى منه ما تخفيه السدة، يتبين أنها مدخل المقبرة، ويستحيل على البشر أن يفتحوها إلا بمعاونة رصد من الجن، أو هكذا كان يستمع في طفولته من أعمامه سارقي مقابر صان الحجر.

مرة أخرى يعود إلى غرفته فاقداً الأمل في الولوج إلى المقبرة، ليجد حسن وسعيد أمامه كما لو كانا يراقبان تحركاته.

- رايح فين يا شيخ إبراهيم !؟، إحنا لينا أكتر من شهر شغالين حفر، وسيبنا عيالنا، وحريمنا، وأرضنا، وزرعنا نشف، دلوقتي الدور عليك تفتح باب المقبرة.

- السدة دي هي الباب، ودي عليها رصد، حارسها جني، لازم نرضيه علشان يسيبنا نفتحها!.

- طيب ما تراضيه ده شغلك ياشيخ إبراهيم!

- أنا كنت بحاول أتواصل معاه، بس لما دخلتم علينا هرب، ونزل جوه المقبرة، خلاص مش حينفع يظهر تاني.

- طب وبعدين، حتكلمه ولا تعرف منه عاوز إيه؟!

- خلينا بكره بعد العشا، أحاول أتواصل معاه وأشوف عاوز إيه؛ علشان يفتح لنا الباب وندخل المقبرة!.

- ماشي يا شيخ إبراهيم، إحنا حنروح نشوف الغيط، ونرجع بعد العصر.

يعود الشيخ إبراهيم إلى غرفة المسافرين، نادماً على الفرص التي واتته للهرب خلال الأسابيع الماضية، هل يهرب اليوم؟ أم ينتظر لحظة ضعف من نجية ويظفر بها، ثم يهرب من البلدة!؟

وتبقى عقبة بنتها بهية، التي لا تفارق أمها مطلقا، كثيراً ما حاول أن يعطي الطفلة نقود لشراء سجاير وحلويات لها، إلا أن نجية ترفض خروجها من المنزل وتركها وحيدة أثناء انشغال والدها وعمها بالحفر.

****

يأتي الليل سريعا، يدخل وحده إلى السرداب، وينزل إلى الأسفل، وينام راقدا بجوار السدة الصخرية، كأنما يسمع ما بالداخل، ويلمح ظلال حسن وسعيد فوق الحفرة يتابعان ما يدور في الأسفل، يرتفع صوته بالدعاء وترديد الأذكاروالأدعية، حتى يُنهَك من كثرة الدعاء وذكر الأوراد، ويصعد درجات السرداب ليواجه حسن وسعيد.

- الرصد اللي على السدة شديد ومش عاوز يسيب مكانه!.
- يعنى إيه؟ مش حنعرف نفتح المقبره وناخد الكنز!
- هو طلب مني حاجة، أنا محرج أقولها لكم!
- طلب إيه؟ نجيب اللي انت عاوزه، بس نفتح المقبرة.
- أنا مش عاوز حاجه منكم، هو الجني اللي على المقبرة طالب طلب غريب!
- طلب إيه ياشيخ إبراهيم؟ اتكلم!
- طلب مني واحدة ست حلوة، تنام عريانة زي ما ولدتها أمها على السدة، ووقتها حيفتح الباب ويسيبنا ناخد الكنز!
- إزاى يعني واحدة عريانة تنام فوق الباب، إيه الكلام ده!
- دي طلباته ومعاكم تلات أيام تنفذوها، أوتردموا السرداب تاني، وأنا أسيبكم وأرجع بلدي، وربنا يعوض عليَّ في الأيام اللي راحت وأنا قاعد عندكم!

يخرج الشيخ إبراهيم تاركا الحفرة وهم في حيرة، لا يعلمون ما الذي يخبئه القدر لهما بعد أن حفرا عدة أسابيع وتركوا أرضهم

تجف وزرعهم يذبل، مخاطرين بحياتهم، وحفر سرداب يزيد على خمسة عشر متراً تحت الأرض!

متسائلين بصمت:

من تكون المرأة العارية التي يريد الشيخ إبراهيم استخدامها لفتح السدة والبوابة؟!

هل ينوي الشيخ إبراهيم إحضار امرأة من بلدته؟ وهل تأتي وحدها أم معها زوجها؟

وهل تأخذ جزءا من نصيب الشيخ إبراهيم أم تأخذ من نصيبهما؟

لنذهب ونفهم منه ما يدور في ذهنه وما ينوى فعله.

- ياشيخ إبراهيم إنت صاحي ولا نمت؟
- لا صاحي اتفضلوا.
- دلوقت إحنا عاوزين نعرف، تعبنا ده كله راح علينا هدر ولا إيه؟!
- أنا قلت لكم لازم ست عريانة زي ما ولدتها أمها!، تنام على باب المقبرة، علشان الرصد يفتح الباب وتبقى طاقة القدر اتفتحت لكم.
- طب اتصرف يا شيخ إبراهيم إحنا عملنا شغلنا كله، فتح المقبرة عليك مش علينا، ده كان اتفاقنا!

- خلاص أنا حبعت أجيب ناس من البلد، يجيبوا معاهم واحدة من البلد، مرات واحد فيهم، تخلع وتنزل تنام على باب المقبرة، وتاخد تلت الكنز.

- ليه إن شاء الله؟! الكنز في بيتنا، واحنا حفرنا أكتر من شهر، هي تيجي على الجاهز تخلع هدومها وتاخد التلت!

- خلاص يا حاج حسن هات اللي تخلع من عندك، وحلال عليك وعليها تلتين الكنز.

- أيوه أنا حجيب نجية تخلع هدومها وتنام فوق الباب لغاية ما يفتح!!

ينتفض سعيد عند سماعه حديث شقيقه الأكبر:

- يا حاج حسن اهدى، بس مينفعش حريمنا يخلعوا ويبقوا عرايا، وفي واحد غريب يشوفهم، دي تبقى فضيحة وجُرس!

- استنى انت يا سعيد، دي مراتي وأنا اللي أقوله ليها تعمله!

تنفرج أسارير الشيخ إبراهيم، ويتهلل وجهه فرحاً ليرد متحمساً:

- والله ده عين العقل، حرام مجهودكم يروح في الأرض.

- شوف يا شيخ إبراهيم تحب تنزل امتى وأنا حكون معاها.

- لا يا حاج حسن محدش حينزل تحت غيرها، وبعد ما تخلع هدومها وتنام على الباب، أنا حبتدي أعزم، وربنا يكرم والرصد يشوفها ويفتح الباب وياخدها جوه!

- إزاي ياخدها؟!

- متخافش ياحاج حسن هو الرصد فاكر إنها جايه له؛ علشان ينام معاها جوه المقبرة، فيروح فاتح المقبرة، وأول ما تتفتح، هي حتصوت وأنا حكون موجود قريب منها تحت في السرداب، ساعتها حقرا قرآن وكذا وِرد، الجني حيهرب لما يسمع صوت القرآن.

- يعني انت حتكون تحت جنب باب المقبرة!، إزاى هي حتكون عريانة وانت تحت؟!

- يا حاج حسن، أحسن الظن بالناس، ده أنا ضيفك ليَّ أكتر من شهر، ومصدرش مني الغلط، أنا حنزل سلالم السرداب ويكون وشي للسلم وهي حتكون تحت، أنا مش حدور وشي ولا أبص على حريمك.

- أنا لما أسمع صوت باب المقبرة بيفتح، حبتدي أقرا؛ علشان الجني يهرب، وتكون هي لبست هدومها وسترت نفسها، وساعتها أخرج، وتنزلوا أنتم تاخدوا الخير كله.

- طيب خلينا نقرا الفاتحة على الخاين وعلى الاتفاق اللي بينا.

- تمام نقرا الفاتحة، والخاين مش فينا بإذن الله.

****

يذهب كلٌّ إلى غرفته، الشيخ إبراهيم فرحاً بالاتفاق، علّه يستمتع بالنظر إلى جسد نجية الممشوق، التي طالما حلم بها بين أحضانه طوال أسابيع الحفر.

أما حسن فبات فرحاً بإنقاذ حلمه في الكنز، والحصول على الذهب والتماثيل وشراء أرض جديدة وبناء بيت جديد.

تبقى نجية مغلوبة على أمرها، بعد أن أفهمها زوجها أنها سوف تخلع ملابسها، ولا يوجد أحد بالأسفل سوى الرصد (الجني) الذي يشتهي إنسية جميلة مثلها، وعندما يقوم بفتح باب المقبرة، ما عليها سوى أن تصرخ، عندها سوف يهرب الرصد، وتستطيع أن تلبس ملابسها وتخرج من السرداب.

اختلف الحال مع سعيد، فلم يكن يتخيل أن يقبل أخوه أن تتعرى امرأته من أجل الكنز، ويبقى طوال الليل حائراً! كيف استطاع الشيخ إبراهيم أن يقنع أخاه بأن تنزل زوجته وتخلع ملابسها، وليس بينها وبين إبراهيم الغريب عنها إلا أمتار قليلة.

أخيراً، الطفلة بهية تغط في نوم عميق، لا تدري ماذا تخبئ الأيام لأسرتها الصغيرة ولها.

****

تمر الساعات بطيئة على أهل البيت، في انتظار غروب الشمس ونزول الليل، ليباغت حسن الشيخ إبراهيم في غرفته.

- إحنا جاهزين يا شيخ إبراهيم، والحمد لله صلينا العشا، وجاهزين ننزل نجية السرداب.

- طب هي فين أم بهية؟

- موجودة وجاهزة، يالا بينا على الزريبة، إنت حتنزل معاها مش كده؟

- أيوه ياحاج حسن علشان مينفعش حد ينور أي ضوء وإلا الرصد يهرب.

- طيب امسكها في إيدك ياشيخ إبراهيم، وخلي بالك لتقع من سلالم السرداب.

- في عنيّ ياحاج حسن.

يأخذ الشيخ إبراهيم نجية إلى سلالم السرداب، وهو ممسكا بها بقوة، وبعد عدة درجات من السلالم يضع يده على خصرها؛ ليتبين أنها لا ترتدي أي ملابس تحت العباءة السوداء التي ترتديها، وعند الوصول إلى أسفل السرداب.

- اخلعي الطرحه والعبايه يا ست أم بهية وسيبيها هنا.

- حاضر يا شيخ إبراهيم.

- أنا حدور وشي، وانتي اخلعي هدومك، ونامي على الصخرة دي، هي دي السدة اللي بنحكي عنها، دى عبارة عن باب المقبرة، لو اتفتحت يبقى الخير كله نزل علينا.

- أنا مش شايفه حاجة من الضلمه، أنا مش عارفة أنام فين!؟.

- استني أنا حقف معاكي فوق المقبرة لغاية ما تخلعي هدومك وبعدين أبعد، علشان الرصد ما يحسش بوجودي، ويطمن ليكي.

- طب خلاص اطلع انت أنا حخلع العبايه.

- طب انتي لابسه حاجة تانية غير العبايه؟

- لأ أنا مش لابسه حاجة، أنام دلوقتي ولا استنى واقفة؟

- لأ نامي، بس بالراحه وافردي رجليكي، علشان يحس بيكي.

- أنا نمت أهوه بس مفيش حاجه بتحصل!؟

****

يتسلل الشيخ إبراهيم في الظلام، ويجلس بجوار قدميها ويبدأ في تحسس جسدها اللين، ويعبث بصدرها، ممسكاً بقدميها، محاولاً فتح ساقيها واغتصابها.

في الظلام وداخل السرداب العميق تحاول نجية أن تصرخ، إلا أن الشيخ إبراهيم يغلق فمها بيد، محاولا إثارتها بيده الأخرى والعبث بصدرها.

لا تستسلم نجية أبداً لرغباته وتقاوم بشدة، وتنشب أظافرها في وجهه وفي يديه، وهو لا يكف عن محاولة النيل منها وفتح ساقيها، إلا أنها تقذفه بعيدا عنها وتبدأ في الصراخ!

- ياحسن الحقني، انجدنى منه.. ياحسن.

هيهات أن يسمعها حسن، وهو فوق الأرض يحلق في سماء الثراء، ويسرع إبراهيم بالهرب، ويصعد أعلى السرداب بسرعة والعرق والدم يصب من وجهه.

- مبروك يا حاج حسن المقبرة اتفتحت، بس محدش ينزل دلوقت علشان الهوا مكتوم جوه، دي مقبرة ليها آلاف السنين!

- طب ونجية!

- بخير، تحت ولبست هدومها، بس الهوا مخنوق تحت، حتطلع لكم، أنا حروح أغير هدومي دي وأرجع نقسم الكنز.

- طيب أنزل بالكلوب أجيبها؟

- لأ، متنزلش دلوقتي هي حتطلع، أنا حغير هدومي وأرجع حالا.

- طيب متغبش علينا أنا قلقان على نجية.

****

يهرب إبراهيم بفعلته، وتخرج نجية مصابة بلكمات وسحجات من محاولات إبراهيم للنيل منها، يأخذها حسن في حضنه لسترها من عيني أخيه.

متناولاً فأس ذاهباً لغرفة إبراهيم؛ ليقتله، يجده قد هرب من المنزل ومن البلدة، سارقاً أساور نجية الذهبية، بعد أن نجح في إخراجها من يديها بعد فشله في اغتصابها، لتكون ليلة حزينة في بيت حسن أبو يوسف.

****

يخرج عليهم يوم جديد، ولا ندري هل يردم حسن السرداب ويعود إلى أرضه وغيطه؟؟

ولا نعرف ما تخبئه الأيام لتلك الأسرة الصغيرة.

مع إشراقات اليوم الجديد، يحضر سعيد لبيت أخيه حسن ليأخذه إلى الغيط.

- صباح الخير يا حاج حسن، أنا قلت آجي الصبح آخدك معايا بعد ليلة امبارح.

- صباح الخير يا سعيد، روح انت، أنا مش حطلع من البيت.

- ليه بس ياخويا تعال نشوف مصالحنا وآخر اليوم نردم السرداب وندخل البهايم جوه الزريبة، ونرتاح بدل ما البهايم مبهدله البيت.

- لأ يا سعيد، روح انت، أنا مش حردم السرداب ولا حدخل البهايم أنا حطلع الكنز، ونشتري أرض كبيرة ونعمل دار جديدة،

ونطلع من الفقر اللي عايشين فيه ده، بعد كده حاخدك وولاد عمنا، ونروح الشرقية نجيب الكلب اللي اسمه ابراهيم وأدفنه في السرداب.

- ليه بس، إحنا الحمد لله أحسن من غيرنا كتير، والحمد لله اللي إحنا فيه ده نعمة كبيرة.

- يا سعيد متقلبش دماغي، روح انت الغيط، وأنا حنزل البلد، ويمكن أسافر على البندر أدور على حد يفتح باب المقبرة.

- يا حاج حسن شيل المقبرة دي من دماغك، وتعال معايا نشوف الغيط والزرع اللي نشف!

- روح يا سعيد متضيقش خُلْقي على أول النهار، وخلي اليوم يعدي على خير.

- حاضر يا حاج حسن حاضر، بس استهدى بالله، سلام عليكم.

يخرج سعيد بحماره إلى الحرجة، ليراعي أرضه وأرض أخيه، بينما يتأهب حسن لمغادرة القرية متجها إلى المدينة وكله أمل أن يعثر على شيخ جديد يقوم بفتح باب المقبرة؛ ليدخلها ويخرج محملا بالتماثيل والذهب.

(٣)

يترك حسن منزله وقريته بل والصعيد كله، بحثا عن الشيخ القادر على فتح باب المقبرة، بعد عدة أيام، نشاهد حسن أبو يوسف متجولاً في مدينة تقع على البحر الأبيض المتوسط، نرى مراكب صيد كبيرة على مرمى البصر، وحسن يجلس على قهوة تطل على البحر بعد أن أنهكه السفر من صعيد مصر إلى شواطئ البحر الأبيض، يقترب القهوجي من الطاولة التي يجلس عليها حسن:

- أجيب لك إيه تشربه يا بلدينا؟

- هات لي شاي تقيل وشيشه معسل، ولو فيه لقمه أكلها يبقى كتر خيرك.

- أجيب لك فول وطعميه ولا أوصي لك على حتتين سمك؟

- لأ، فول وطعمية وكام بيضه معاهم، أنا ليّ يومين مكلتش.

- عنيّ يا بلدينا، إنت عاوز تسافر بره ولا حكايتك إيه؟

- هات بس الفطور والشاي وأنا حقولك على اللي جابني بلدكم!

يتأمل حسن في البحر، والسفن الكثيرة الملتفة حول الشاطئ، وحركة الشباب والكبار حول رصيف الميناء، بعضهم صياد، وأكثرهم يحمل متاعه؛ استعدادا للسفر، يتذكر بلدته التي سافر

منها منذ أيام، لا يدري هل يجد ضالته هنا أم أنه يبحث عن سراب؟!

- أحلى فطور يا بلدينا وكوباية ميه ساقعه وشاي تقيل، افطر براحتك، وبعدين أجيب لك الشيشه. إنت جاي تقابل مين في بلدنا؟!

- أنا جاي بدور على واحد اسمه الشيخ فتوح، أنا من الصعيد وعرفت إنه من بلدكم، نزلت امبارح كفر الشيخ وسألت لغاية ما عرفت إن دي بلده وهو عايش هنا.

- طب أنت عاوز الشيخ فتوح ليه، ده لا بيسفّر أوروبا ولا ليبيا ولا ليه في الكلام ده!

- أنا مش عاوز أسافر أي حته، أنا عاوزه في شغل، عندي مصلحه معاه.

- طب رسيني وأنا حريحك، وأجيب لك فتوح لغاية عندك بس تراضيني.

- بص أنت ملكش غير تمن الأكل والشاي والشيشة، عاوز تقولي فين مكانه تمام، مش عاوز أنا اللي وصلني من آخر بلاد المسلمين لغاية هنا، قادر بإذن الله يعترنى في الشيخ فتوح.

****

يترك حسن أبو يوسف القهوة بعد أن تناول فطوره وشرب الشاي والمعسل، يتجه إلى أحد الجوامع لقضاء حاجته والوضوء والصلاة في الجامع، والراحة داخل صحن الجامع، يغفو ساعتين ويصحو على أذان الظهر، يصلي الظهر وصلاة جنازة على أحد المتوفين من أبناء البلدة، يخرج بعدها من الجامع مستكملا رحلته في البحث عن الشيخ فتوح.

****

تمضي أيام ونجية في انتظار زوجها الغائب، ولا تدري سبب غيابه، بعد مضي أسبوع وفي ظهيرة يوم حار من أيام صعيد مصر، يعود حسن أبو يوسف ومعه رجل غريب، يرتدي جلباباً واسعاً لونه أخضر وتحته سروال أبيض اللون، يظهر من أسفل الجلباب القصير، ينتعل شبشب من الجلد بقدم كبيرة لا تتناسب مع قصر قامته، وفي يده اليسرى نجد خاتما كبيرا بفص أسود وسبحة بنية اللون طويلة بحبات كبيرة، معه شنطة يبدو أنها ملابسه لربما يقضي بضعة أيام في صعيد مصر.

بجواره حسن أبو يوسف ممسكاً بشنطة كبيرة، مستخدماً يده الأخرى طارقاً بقوة على الباب الخشبى العتيق، لعل ابنته أو زوجته تسمعه!

- مين اللي على الباب! إنت عم سعيد؟
- لا يا بهية أنا أبوكي، افتحي الباب وقولي لأمك معاي ضيف.
- حاضر يا با، أبويا رجع يا مّاي ومعاه ضيف.

يدخل حسن والشيخ فتوح إلى غرفة المسافرين، ويحضر سعيد من الغيط بعد أن استدعاه أخوه الأكبر؛ حتى يتعرف على الشيخ فتوح القادم من كفر الشيخ؛ لفتح المقبرة.

- إيه يا شيخ فتوح إحنا ورينا الحفرة والسرداب والسدة الموجودة، عاوزين نعرف رأيك في اللي شفته؟

- إنت يا حاج حسن شرحت لي كل حاجة وإحنا في كفر الشيخ، وانا جيت معاك واللي انت قلت عليه أنا لقيته، بس انا قلت لك من هناك البوابة دي عليها رصد شديد، واتاكدت لما نزلت معاك، ده مش حيفتح المقبرة إلا بالدم.

- ندبح له اللي هو عاوزه!، البهايم كتير يا شيخ فتوح، ندبح امتى لو عاوز النهارده نتوكل على الله.

- ياحاج حسن الدم مش دم بهايم، ده عاوز دم بنى آدم!

- لا إله إلا الله ندبح بني آدم إزاى!!

- أنا كنت حاسس بكده وأنا في بلدنا، بس قلت يمكن رصد خفيف نقدر نراضيه بدم قطة أو اتنين.

- طب سهله القطط في بلدنا كتير.

- لأ، الرصد شديد، والمقبرة دي مقبرة ملكية، عليها باب واتنين وأكيد متعلق على مهلكه.

- يعنى إيه مهلكه دي يا شيخ فتوح؟! أنا أول مرة أسمع الكلام ده منك!

- المهلكه دي بتبقى جنب الباب، لو الباب متفتحش بإذن الرصد اللي عليه، والسارق حاول يكسر الباب علشان يدخل، بتنهار الحوائط بتاعة السرداب ويندفن السارق جوه السرداب!.

- لا إله إلا الله، طب وبعدين.

- الفراعنة بيعملوا المهلكه علشان محدش يقدر يسرق المومياوات ولا الدهب والتماثيل اللي جوه المقبرة.

- طب يا شيخ فتوح متسبناش، إحنا تعبنا لغاية ما وصلنا للمقبرة.

- أنا حقعد معاكم يومين تلاته، شوفوا ازاى حتخطفوا عيل ندبحه وتخلص الليله دي، وكل حيّ يروح لحاله!.

- حنجيب عيل منين يا شيخ فتوح، إحنا بلد صغيرة والناس عارفة بعض، إزاى نخطف عيل من أهله وندبحه؟!

- مش لازم من البلد دي، من أي بلد جنبكم، المهم تجيبوا عيل أو راجل أو ست المهم يدّبح على الباب آخر السرداب والرصد يفتح المقبرة.

- أمال ليه بتقول عيل صغير؟

- علشان العيل الصغير نقدر نكتفه ونتملك فيه وندبحه من غير دوشه، إنما لو راجل حنتبهدل على ما نعرف ندبحه، ودلوقتي سيبوني أنام أنا ليّ يومين مسافر معاك يا حاج حسن.

- ماشي يا شيخ فتوح حنسيبك تنام، ياريت إحنا نعرف ننام بعد اللي أنت قلته ده!

****

يخرج حسن وسعيد من غرفة المسافرين مذهولين من حديث الشيخ فتوح، عن ضرورة ذبح وقتل إنسان على باب المقبرة، حتى يسمح الجني بفتح باب المقبرة.

هل نخطف طفلا صغيرا من أهله في قريتنا الهادئة و نذبحه على باب المقبرة!؟

وسط الحيرة والتساؤلات، يتجه سعيد إلى منزله والصمت يطبق عليه وعلى أخيه حسن الذي يدخل إلى حجرته، يرقد بجوار نجية وهو شارد يفكر فيما قاله الشيخ فتوح، الرصد يحتاج لدم إنسان ؛ لفتح المقبرة.

حفرت لأسابيع وضحيت بزوجتي، ونزلت إلى السرداب عارية في سبيل فتح المقبرة، وبعد أن اقتربت من تحقيق الحلم ابتعد، وهرب الشيخ إبراهيم بعد ما صَدقت روايته عن الكنز.

هل حدثت علاقة بينه وبين نجية أثناء انشغالي بالحفر؟!

هل هرب خوفاً من أن أكتشف العلاقة؟!

هل كان ينوي إقامة علاقة معها وأنا في انتظاره خارج السرداب؟!

منتفضاً من سريره كمن مسه جن أطاح بالباقي من عقله صارخاً:

- يا نجية اصحي، أنا من الصبح مش عاوزك تقعدي في البيت، أنا مش عاوز اللي حصل مع الكلب اللي اسمه الشيخ إبراهيم يتكرر تاني مع الشيخ فتوح، دي ناس غريبة منعرفهاش!.

- اللي تشوفه يا حسن بس أروح فين؟

- تروحي بيت أبوكي، تقعدي مع أخواتك لغاية ما أشيع لك تاجي أو آجي آخدك.

- طب وبهية أخدها معاي؟

- لا بهية تقعد معاي تعمل شاي وتراعي البهايم والطيور، أنا وسعيد حنطبخ للراجل الغريب ده، لغاية ما يفتح المقبرة، ونقسم اللقيّه، وكل حي يروح لحاله.

- طب ياخويا اللي إنت شايفه، بس نام شويه وارتاح!

****

يقوم حسن من فراشه مبكراً، يقدم الإفطار للغريب في غرفة المسافرين، ويترك بهية في البيت مع الغريب، ويذهب إلى الغيط لإحضار أخيه سعيد، بعد أن غادرت زوجته المنزل.

- يا سعيد تعال، أنا عاوزك نتكلم شويه.

- خير يا حسن، الراجل اللي جبته معاك لسه في البيت ولا مشيته؟!

- لا سبته في البيت مع بهية وروحت أمها لبيت (أبوها).

- يا حاج حسن إحنا مالناش في المشاكل دي، إحنا نردم الحفره والسرداب ده، نخلص من كل ده، وترجع لأرضك وزرعك.

- ياسعيد إحنا بينا وبين اللقيه خطوة واحدة، أكيد جوه المقبرة دهب وتماثيل وفلوس كتير، نقدر نعيش بيها أحسن عيشه، إنت تاخد التلت وأنا التلت والشيخ فتوح ياخد التلت وساعتها نقفل الحفرة ونردم السرداب!.

- يا حاج حسن أنا مش عاوز حاجه غير راحتك انت، كمان أنا مليش التلت أنا ليّ السدس؛ لأننا اشتغلنا في الحفر مع بعض إيد بإيد.

- يا سعيد إنت أخويا الصغير، وأنا عاوز أديلك التلت كله بس عاوز منك طلب تنفذه ومتقولش لأ.

- طلبك مجاب يا حاج حسن من غير أي حاجه، إيه ياحسن ياخويا؟!

- أنا عاوزك تدبح بهية على باب المقبرة.

- لا إله إلا الله! إيه اللي بتقوله ده ياحاج حسن، وحد الله أدبح بهية بنتك ازاي؟!

- إحنا معندناش وقت نفكر، ولا نخطف حد، والبلد صغيرة، وأكيد الناس بتتكلم عن الغريب اللي كان عندنا.

- صحيح البلد صغيرة.

- وبعدين جبنا غريب تاني، ممكن في أي لحظة نلاقي الحكومة جايه، ونروح في حديد من غير ما نكسب حاجه.

- طب إزاى بس قلبك يطاوعك إنك تدبح بهية!؟

- أنا مقدرش أدبحها، إنت يا سعيد اللي حتدبحها الليله دي وتنفتح المقبرة ونستفض.

- إزاى بس ياحاج حسن؟!

- أنا مشيت أمها من البيت، حتزعل شويه وتحبل وتجيب بهية غيرها!.

- أنا مقدرش أدبحها يا حاج حسن.

- أنا اللي بقولك ادبحها بدل ما الشيخ فتوح يدبحها ويدبحني بعدها، وياخد الكنز ويهرب يا سعيد، اسمعني دي بنتي وأنا مسامحك.

- يا حاج حسن، وحد الله.

- الليلة دي بعد العشا تدبحها، ونرتاح من المرار ده كله، إحنا لينا شهرين من يوم ما لقينا سلالم السرداب، وإحنا مش عارفين ننام!

- طب روح دلوقتي وأنا حعدي عليك بعد العشا، واللي مقدر ومكتوب يكون.

****

مع رحيل حسن من الغيط يجلس سعيد تحت شجرة التوت وهو مذهول وفي حيرة من أمره!.

حسن أخوه الأكبر فقد عقله، وأعماه حلم الغنى السريع، والثراء الفاحش عن إدراك الصواب من الخطأ، وماذا يفعل بعد ما سمعه من أخيه الأكبر حسن؟

هل يستطيع أن يقتل بهية بنت شقيقه ذات الستة أعوام البريئة، من مؤامرات أبيها وعمها؛ لفتح باب المقبرة!؟

هل تستطيع يداه أن تمسك بسكين، وتنحر رقبة الصغيرة بهية من أجل فتح المقبرة؟

هل يتراجع حسن عن قتل الطفلة عندما أرفض ذبحها؟ أم ينفذ تهديده ويجعل فتوح يذبحها!

ذلك الغريب الذي أطل علينا بوجهه القبيح، وجسمه القصير، ومسبحته الغليظة، ومظهره الذي لا يوحي أبدا بالطمأنينة، لن يتوانى عن ذبح الطفلة، طالما والدها يرغب في ذلك!

هل يبلّغ الشرطة عن أخيه الذي رباه بعد وفاة والده؟!

هل تحضر الشرطة وتجد السرداب الذي اشترك في حفره لأسابيع مع أخيه، ويتم القبض عليهما بتهمة التنقيب عن الآثار؟ ويتم إيداعهما السجن، ووضع حراسة على المنزل، وتشرد نجية وبنتها بهية.

يترك سعيد الغيط عائدا إلى منزله لا يدري ماذا يخبئ المساء له ولبهية بنت شقيقه الطفلة البريئة؟.

(٤)

في المساء بين دروب القرية الضيقة، متحسساً خطاه، تتصارع بداخله الأفكار، ذاهباً إلى أخيه الأكبر.

- يا حسن أنا جيت زي ما طلبت مني بعد العشا، إنت لسه محكم دماغك على موضوع البنية بهية؟!

- يا سعيد القضية دي مقفوله، أنا معنديش حل تاني غير بهية، ربنا يسامحنا ويصبر أمها على فراقها، وربنا يكرمنا بولد، ولا بنت تانيه غيرها إن شاء الله.

- طب والبنت إنت قلت لها حاجة؟

- لا أنا حقولها روحي مع عمك سعيد شوفي الحفرة قبل ما نردمها، وأنت انزل بيها تحت وادبحها، أنا حضرت لك سكينه حاميه وسنيتها على حجر؛ علشان البنت ما تتعذبش.

- طيب طالما دي رغبتك، أنا مقدرش أكسر كلامك.

- انده عليها خلينا نخلص من الليلة دي، ونفتح المقبرة ونرتاح، إحنا لينا شهور شغالين، ومنتظرين الليلة دي.

- يا بت يا بهية تعالي من جوه، عمك سعيد جه.

- حاضر يا با، أنا جايه أهوه، أعملكم شاي؟

- لا تعالي بس، مش عاوزين شاي.

****

تلتقي عيون بهية بعيون عمها، الذي يستأذن حسن في إحضار حلاوه ولبان لها؛ علشان البنت تبقى مبسوطة، يأخذها سعيد في يده بعد أن استحسن حسن الفكره!

- يا بهية أنا مش حجيب لك حلاوه أنا حوديكي لأمك.
- ليه ياعم سعيد؟! أبويا يزعل مني هو قال لي خليكي جنبي، أنا عاوزك تعملي لنا شاي!
- يا بهية اسكتي أنا حوديكي لأمك، ومترجعيش تاني البيت إلا وأمك معاكي.
- أنا خايفه أبويا يزعل ويضربني.
- لا متخافيش محدش حيضربك.

****

يصل سعيد إلى منزل عائلة نجية، ويحكي لنجية عن نية حسن في ذبح بهية لفتح باب المقبرة، يحذرها من الذهاب لبيتها قبل أن يغادر فتوح المنزل.

وأنه سوف يترك البلد وأرضه ويعمل في أي بلد آخر، لأنه لا يستطيع أن ينظر في وجه أخيه الأكبر بعد أن خالف أمره.

تأخذ نجية ابنتها في حضنها، وتقبل يد سعيد ودموعها تغطي عيونها متعجبة مما سمعته من سعيد!.

ماذا حدث لزوجها حسن الحنون؟! تزوجته منذ سنوات وأنجبت طفلتها الوحيدة بهية ولم ترَ فيه إلا مكارم الأخلاق.

هل حدث له مس من الجنون ليفكر في ذبح ابنته من أجل وهم السرداب والمقبرة؟!

هل تبلغ أسرتها بما كان ينتويه حسن؟!

هل تكشف سر زوجها بعد طول عشرتها معه التي استمرت سنوات لم يكن فيها إلا الزوج الوفى؟!

****

يترك سعيد القرية، ويهجر أرضه وزرعه، متنقلاً من بلدة إلى أخرى، يعمل باليومية ولا يجد مكاناً يأويه، هائما في البلاد.

يكتشف حسن خيانة أخيه وشقيقه له، ويقرر أن يطرد فتوح من بيته؛ لأنه من المتعذر ذبح بهية أو غيرها على باب المقبرة!

****

غاضباً من أخيه وشقيقه الذي خانه، وقام بتهريب ابنته وضياع فرصته في الكنز، الذي بات تحت قدميه!

- يا شيخ فتوح أنا مش حقدر ادبح بني آدم على الباب، لو عندك طريقه تانيه قول عليها، أو من غير زعل تسيبنا، علشان أنا مراتي وبنتي مخليهم بره البيت عشانك.

- والله ده كنزك وأنت حر فيه، أنا بس عاوز حقي وتعبي اللي راح على مفيش، وأنت ربنا يكرمك في الكنز.

- حق إيه هو إحنا طلعنا حاجه! إنت ملكش حاجه عندي، إنت قعدت واكل شارب نايم ليك أسبوع.

- لا أنا حقي تلت الكنز، إنت ممكن بعد مامشي تدبح أي عيل، وتاخد الكنز لنفسك، وممكن تكسر الباب وتاخد اللي جوه كله لنفسك.

- ما انت قلت فيه مهلكه إزاى أكسر الباب؟!

- إنت ونصيبك، يمكن تخبط بعيد عنها وتفتح المقبرة، أنا مليش في الشغل ده، أنا عاوز حقي وإلا أبلغ عنك.

- حقك ازاي، مفيش حاجه طلعت من المقبرة.

- مليش فيه، آخد حقي ولا الحكومة تاخدك، تتسجن فيها، التنقيب خمس سنين مشدد، قلت إيه؟ أروح أبلغ عنك، وأقول أنك جبتني من كفر الشيخ؛ علشان أفتح لك المقبرة.

- طب أنا معنديش فلوس، كل اللي معاي صرفته على السفر، ولي شهرين منزلتش الغيط، ولا بعت ولا اشتريت.

- خلاص آخد الجاموسة، هي متجيبش كتير بس تعوضني عن الأسبوع ده.

- طب دي اللي بنشرب منها شوية لبن الصبح، ونعمل حتة جبنة ناكلها.

- برضه مليش فيه يا حاج حسن، أربطها خليني أخدها وأمشي أبيعها وأرجع بلدي.

- طيب خلاص، بس بلاش تبيعها في بلدنا، الناس تقول إيه، حسن باع الجاموسه!

- ملكش فيه، أبيعها مكان ما ألاقي منها جنيه زيادة، يالا أنا حمشي من بالليل، مش حبات في بيتك تاني.

****

يخرج الشيخ فتوح من المنزل، يجر الجاموسة التي تنعر بشدة؛ لفراق بيت حسن أبو يوسف بعد افتراقه عن الجاموسة التي رباها لسنوات، يجمع حسن ما بقي معه من نقود، ويخرج متجهاً إلى المدينة لشراء المعدات التي تستخدم في الحفر وتكسير الإسمنت وحفرالطرق، مستعداً لتكسير الباب الملعون الذي يفصله عن الثراء، والذي من أجله خسر شقيقه وكاد أن يخسر ابنته الوحيدة، ومن قبلهما خسر احترامه وكرامته أمام زوجته، التي سمح لها بالتعري من ملابسها أمام الغريب!!.

****

في اليوم الموعود وعقب صلاة العشاء، ينزل بالكلوب إلى أسفل السرداب، ومعه سلك طويل ممتد من عمود نور بجوار منزله، بيديه مرزبة ضخمة ومعدات كثيرة لفتح الباب بمفرده، بينما نجية وبهية داخل المنزل ينتظران خروجه لساعات طويلة.

عند اقترابهما من الزريبة لاستطلاع غيبة حسن الزوج والأب، يجدان السرداب قد انهار فوقه، مع صرخات نجية وبهية، يتجمع أهل القرية، تحضر سيارات الشرطة والدفاع المدني والإسعاف، وتستمر جهودهم لساعات طويلة؛ لإنقاذ حسن من تحت التراب.

****

بعد يومين من العمل الشاق لرجال الدفاع المدني، وبمساعدة كل رجال القرية، يتم استخراج جثة حسن أبو يوسف.

بعد الصلاة عليه في المسجد، يخرج أهل القرية من الجامع الكبير، حاملين جثمان حسن أبو يوسف، ليتلقفه " الشديد "، بعد أن حفر قبره، يدفنه " الشديد " ويذهب الجميع إلى الساحة لأخذ العزاء.

غير مصدقين للروايات الكثيرة حول موت حسن، هل مات أثناء حفر بئر داخل منزله؟

أم أنه كان يبحث عن آثار قديمة كانت مدفونة بمنزله؟

تنتشر الحكايات والروايات عن موت حسن، واختفاء سعيد أخيه وهروبه من القرية.

تمر أيام العزاء، والجمع الكثير داخل الساحة يخلو من سعيد أخيه وشقيقه، الذي ترك القرية ويتساءل المعزون.. هل يعود بعد وفاة أخيه؟! أم يظل هائماً في البلاد يتألم من عدم طاعة أخيه؟! وهل عصيانه لأمر أخيه كان السبب في موت حسن لاحقا؟!

****

الجُودَة

(١)

يعيش حساني فاوى - وهو من عائلة (الفاوية) - وسط أسرته وإخوته الأربعة الأكبر منه سناً، وأخواته البنات، ووالده الهارب من ثأر قديم، لقتله أحد أفراد عائلة (أبو العطا) وهروبه لسنوات طويلة من حكم بالإعدام.

اعتادت الأسرة على غيابه وعلى الحذر الدائم من عائلة (أبو العطا) والخروج بالسلاح دائما؛ خوفاً من غدر شباب عائلة (أبو العطا).

يقوم حساني وإخوته يوميا بالذهاب إلي الحرجة، وهي مكان الحقول المتاخمة للقرية، يزرعون أرضهم بالقصب طوال العام، مع وجود برميل أو أكثر في وسط الأرض يستخدم في إخفاء السلاح الآلي، بعد لفه وطيه في شيكارة كيماوي، نجد داخل الغيطان وفي أماكن متفرقة، أكثر من برميل مدفون في الأرض، وكلها لتخزين السلاح والذخيرة؛ استعداداً واحترازاً من عائلة (أبو العطا).

****

في يوم من أيام الصيف، وبعد انتهاء حصيد القمح في الحرجة، وأثناء العودة إلى القرية محملين بأجولة القمح لتخزينها بالمنزل، وأثناء قيادة إخوته للجرار الذي يجر مقطورة محملة بالقمح والتبن، يكون أفراد من عائلة (أبو العطا) قد أعدوا كميناً للإخوة الأربعة ومعهم حساني.

وفي المكان والموعد المتفق عليه بين أبناء عائلة (أبو العطا)، تبدأ الأسلحة الآلية في إخراج دفعات من الرصاص، ليقع الإخوة الخمسة على الفور، ويشتعل الجرار والمقطورة، ويتمكن حساني المصاب في ظهره من الهرب بعيدا عن القرية في اتجاه النيل، وسط مطاردة أبناء عائلة (أبو العطا) له، ليسقط جسده المجروح في مياه النيل، يغطس ويعوم حتى يصل إلى البر الثاني!!.

****

مع خروج العديد من الأهالي لاستطلاع الأمر، نكتشف مقتل الإخوة الأربعة، وهروب حساني الذي يصل إلى البر الثاني، ويخرج من الشاطئ، عله يجد من يساعده، يتحرك حتى يصل إلى إحدى القرى، يتعرف عليه بعض أهل القرية ويأخذونه إلى منزل الحاجة أنيسة لترى فداحة جراحه، تطلب منهم خروجه من بيتها وإرساله إلى المستشفى الأميري، في محاولة لإنقاذه من جروح الرصاص النافذة في جسده، ومن النزيف الذي لا يتوقف.

يحذرهم حساني من إرساله إلى المستشفى، خوفا من تعقب باقي أفراد عائلة (أبو العطا) له، خاصة وأنه الشاهد الوحيد على مقتل إخوته!

أمام حيرة الحاجة أنيسة في أمر جروحه المتعددة، تقرر الحاجة وضع السمن البلدي على النار، وغمر جروح حساني بالسمن المغلي لإيقاف النزيف، وتطهير الجروح، يقضي حساني أسابيع

بمنزل الحاجة أنيسة، حتى يتعافى من إصاباته وتأنس له الحاجة أنيسه كابن لم تلده.

يحضر أهله وأبناء عمومته لإعادته إلى البلدة مرة أخرى، مع رفض إقامة عزاء لإخوته المتوفين تمهيداً للأخذ بثأرهم.

- حساني، كفايه لغاية كده، إنت قربت على شهر في بيت الحاجة أنيسة، مستخبي وخايف وده مش طبع رجالة الفولية!

- أنا كنت تعبان بين الحيا والموت، ربنا يسترها، الحاجة عالجتني واعتبرتني زي ولد من ولادها.

- طيب يا حساني قعدتك هنا خطر عليك وعليها، لو عيلة (أبو العطا) عرفوا مكانك حيموتوك، ويموتوها معاك!

- لأ ياعمى، متقولش كده، دي ست كبيرة ومالهاش ولاد، واعتبرتني ابنها وأنا مينفعش أكون السبب في أذيتها.

على الفور يقوم حساني بوداع الحاجة أنيسة ذات القلب القاسي والملامح المتحجرة، إلا أنها ودعته بدموعها، وعلى وعد منه بالعودة كل فترة؛ للاطمئنان عليها.

****

عند عودته لمنزله ولقاء أمه وأخواته البنات، والخروج يومياً إلى الحرجه لمتابعة القصب المزروع والاطمئنان على سلامة البراميل وما تحويه من سلاح وذخيرة.

في موعد ريّ الغيط وتشغيل مكنة الري، يقابل حساني أفراد عائلته لأول مرة بعد الحادث، لكنهم قابلوه بالاستهزاء من عدم قدرته على حماية إخوته وهروبه من موقع الحادث، ونزوله إلى النيل هرباً من عائلة (أبو العطا)، لم يستطع حساني تبرير ما حدث، تركهم وانصرف إلى ري الغيط حاملاً الخزي والعار ويجر ذيول الخيبة والندم.

****

في المساء، جالسا شارد الفكر أمام منزله، يحضر اثنان من أبناء عمومته من الشباب، ومعرفة ما حدث معه والسخرية منه على تركه إخوته قتلى، وهروبه دون إطلاق طلقة رصاص واحدة!

- سلام عليكم يا حساني، إحنا قلنا نيجي نشرب معاك الشاي.

- يا مرحب ياولاد عمي خطوة عزيزة.

- احكي لنا ازاي جريت وانت مضروب بالرصاص!

يكمل الآخر حديثه مستهزئا:

- أيوه احكي لنا يابطل إزاى جريت والرصاص في ضهرك؟!

يرد حساني منفعلا:

- أنتم جايين تتمسخروا على حساني ولد فاوى!

- أيوه أمال عاوزنا نقولك إيه، بعد ماخليت سيرة عيلة فاوى كلها في التراب.

- طيب غور أنت وهو من وشي، بدل ما فرغ خزنه في صدر كل واحد فيكم!.

- كنت فرغت الخِزن يوم ما جريت على البحر وهربت، إحنا ماشيين، بس التار ده في رقبتك أنت، ولو حد مننا خده ليك تفضل راسك في التراب طول عمرك إنت وعيالك.

يرد الثاني:

- سلام عليكم.

تجاهل سلامهما، واكتفى بنظرات الغضب، ودمه يفور في عروقه، وكلمات أبناء عمومته أشد ألماً من طلقات الرصاص يوم إصابته وهروبه، وأكثر قسوة من السمن المغلي حين صبته الحاجة أنيسة على ظهره.

قبل أن تهدأ ناره، أخذ حماره عائداً إلى الحقول، وفي ظلمة الليل تحسس غطاء أحد البراميل مستخرجا سلاحا نارياً وثلاث خزنات محشوة بالرصاص متوجها إلى القرية، عاقداً العزم على قتل كل من يقابله من آل (أبوالعطا).

****

يتخفى حساني داخل غيطان القصب التي تملكها عائلة (أبوالعطا)، حتى انبلاج فجر يوم جديد، منتظراً مرور أحد أفراد عائلة (أبو العطا)، تمر دقائق قليلة يكون فيها حساني مدججاً بالسلاح، يقابل أحد فقراء عائلة (أبو العطا) ذاهباً إلى الغيطان، راكبا حماره، أمامه فأس ولفة قماش صغيرة ملفوف داخلها قطعة

من الجبن الأخضر ونصف رغيف شمسي، ذلك هو زاده طوال اليوم وبجانبه قلة فخار مملوءة بالمياه، علها تكفيه طوال يوم حار في صعيد مصر.

يخرج عليه حساني وينزله من فوق حماره، يطلب منه أن يتلو الشهادة، ويفرغ فيه خزنة السلاح الآلي، يقع المسكين مضرجا في دمائه، يضعه حساني فوق حماره ويجره إلى بيوت عائلته عائلة فاوى.

أمام بيت أبناء عمومته يربط الحمار وفوقه القتيل، ويصيح صارخا في جميع من حوله:

- حساني فاوى كل يوم حيجيب كلب من بيت (أبو العطا) !.

تشتعل القرية من جديد ويهرب حساني إلى منزل الحاجة أنيسة، ليختفي هناك أسابيع، ولا تكف أعين و آذان أبناء عائلة (أبو العطا) في البحث عنه.

****

(٢)

أصبح حساني بطل في أعين أطفال عائلة فاوى، والمثل الأعلى في الأخذ بالثأر واللعب بالسلاح الآلي، أصبحت الأمسيات تُقضى في حكايات حساني وقدرته على الاختباء لأسابيع، ثم عودته متخفياً بلباس الليل، ليبقى بجوار الطريق حتى انبلاج الفجر، ساكنا لايراه أحد، حتى تحسبه من سكونه قطعة من الطين، أو جذع نخلة مقطوع.

وعند مشاهدته لفلاح من عائلة (أبو العطا) تدب فيه الروح، ويظهر كملك الموت حاملاً سلاحه الآلي، مفرغاً خزنته بسرعة البرق، ويترك ضحيته مضرجة فى دمائها، ويفر هارباً إلى مخبئه بجوار أمه الثانية ومطيبة آلامه وجروحه الحاجة أنيسة.

****

أصبح عدد قتلى عائلة (أبو العطا) ثلاثة، قتلهم حساني وحده في أسابيع قليلة، وتأججت نار الثأر في البلدة وإن كانت الحكومة تعجز عن إيقاف نزيف الدم، فأهل القرية يعلمون أن حساني يعيث في أبناء عائلة (أبو العطا) قتلاً.

لا يوجد أمام معاون المباحث اتهام رسمي ضد حساني أوعائلة فاوى، والسلاح مخبأ في الحقول، والبراميل لا يعرف طريقها سوى أصحابها، وغرقت عقول العقلاء وشيوخ البلدة في بحور الدم.

في إطار محو العار الذي أصاب عائلة (أبو العطا)، يتمكن كمين نُصب بدقة على الطريق، من قتل أحد أبناء عمومة حساني، وربطه فوق حماره، وإرساله إلى بيوت آل فاوى كما فعل حساني أول مرة بفقيرهم.

****

تصل الأخبار إلى حساني أن ابن عمه قد قتل، وبحضور أخوة القتيل، يتعهد حساني أمامهم بأخذ الثأر وقتل كل عائلة (أبوالعطا) ليتسرب الحديث إلى عقلاء عائلة فاوى.

يجتمع كبراء عائلة فاوى متخذين طريقهم ذاهبين إلى مخبأ حساني بمنزل الحاجة أنيسة، يرجونه بأن يتم صلح مع عائلة (أبو العطا)؛ حقنا للدماء التي تهدر دون نهاية.

يستشيط حساني في الجمع غضباً مرددا : إن دم إخوته ودمه لازال ساخنا على الطريق، وأن الثأر لم ينتهِ وما زال لنا عندهم أكثر من رجل. وبكل حزم وثقة بالنفس يهددهم بأن من يتحدث في الصلح سوف يُقتَل بأيدي حساني، وأن كل بيت من بيوت عائلة فاوى عليه شراء خزنة كاملة من الرصاص كل شهر وتسليمها له.

****

وسط ترقب الجميع والقلق داخل القرية من تربص حساني وخروجه في أي ليلة لقتل ضحايا جدد، تقام ليلة عرس لإحدى

بنات عائلة (أبو العطا)، وسط الحراسة المشددة من شباب العائلة المدججين بالسلاح، وداخل مندرة آل (أبو العطا) تقام ليلة الحنة.

يبدؤها شيوخ من المدينة حضروا خصيصاً لإحياء الليلة بآيات من الذكر الحكيم، والموائد معدة لعشاء كل المدعوين بأطيب اللحم.

في غمرة الفرح وبعد الاستماع إلى القرآن، تبدأ فقرة من الرقص بالخيول العربية الأصيلة والمزمار البلدي، والعازفين بملابسهم البيضاء، وفرحة الأطفال وبهجتهم.

يدخل حساني إلى الفرح متخفيا في ملابس امرأة بنقاب، يخفي ملامحه، ممتطياً دراجة نارية خلف أحد أبناء عمومته، مقتحما ليلة العرس، بين الصفوف وحول المندرة ووطاق السيدات، مثيراً للفزع، مطلقاً سلاحه الآلي مصيباً أطفالا وشيوخاً وشباباً، هارباً بسرعة جنونية قبل أن يحاول أحد الشباب إصابته!.

تبدأ سيارات الإسعاف بنقل المصابين والقتلى إلى المستشفى الأميري، وتتحدث الصحف عن المذبحة التي دارت في صعيد مصر، ومسرح الجريمة الذي تحول في لحظات من فرح وعرس إلى مأتم ودماء، تسفر الحادثة عن مقتل سيدتين وطفل من عائلة أخرى، بخلاف تسعة مصابين معظمهم من القرى المجاورة، كان حضورهم لمشاركة العائلة فرحها حسب تقاليد أهل الصعيد.

****

تشتعل البلدة بأكملها ضد عائلة فاوى، مهددة بحرق بيوتهم وتشريدهم خارج البلدة، ووصف ما فعله حساني بالخسة والنذالة، والاعتداء على النساء والأطفال، وذلك يتنافى مع أخلاق وشيمة أهل الصعيد.

تقع عائلة فاوى في حيرة، ويتجه أكابر العائلة مع أمه إلى منزل الحاجة أنيسة لإقناعه بتسليم نفسه إلى الحكومة والحفاظ على بيوتهم وأرضهم، بعد أن قامت عائلات البلدة بتهديدهم بذلك.

علماًبأن الحكومة لن تصبر كثيراً حتى تتمكن من القبض عليك، بعد اتهام أهالي القتلى، ووقتها لن يكون لدينا أي فرصة في الحفاظ على أرضنا وبيوتنا، ولن تسلم عائلة فاوى من التشريد في البلاد، أما أنت فمصيرك حبل المشنقة والإعدام، بعد ما فعلته في عرس أولاد عائلة (أبو العطا).

تستأذنهم أمه، وتأخذه إلى ركن في بيت الحاجة أنيسة قائلة:

- حساني يا بني، إنت اللي عملته ده خلى روسنا كلها في التراب، تار أخواتك خدته خلاص، إنما ضرب الناس الغريبة في الفرح غلط كبير!

- طب وانتي يامه كان فين كلامك ده، لما أخواتي ماتوا قدامي والجرار ولع بالمحصول؟!

- يا بني ده كان تار علينا، وأبوك هربان بسببه، وأنت خدت بتار أخواتك وزيادة، كان فين عقلك لما رحت تموت نسوان وعيال صغيرة.

- أنا يامه الدم غلي في عروقي، إزاي يكونوا قاتلين واد عمي من أسبوع، ويعملوا فرح ومزمار وخيل ترقص!

-خلاص يا حساني الفاس وقعت في الراس، وعيلة فاوى كلها الغلط ركبها، ولو مسلمتش نفسك، كل بيوتنا حتتهد، وبهايمنا حتسمم وحنطرد من البلد، وأرضنا كلها حتاخدها عيلة (أبوالعطا).

- يامه أنا عملت الواجب علشان أرفع راسكم في البلد كلها، وغامرت بنفسي ودخلت بيوتهم وفرحهم وضربت نار وقتلت، كل ده عشانكم.

- ياريتك كنت مت مع أخواتك، ولا تجيب الخزي والعار لينا، إنت قتلت عيال صغيرة، أطفال مش من بيت (أبو العطا) وناس غريبة جايه تجامل.

- طب يامه انتى عاوزه إيه مني، أسلم نفسي للحكومة؟!

- ياحساني لو سلمت نفسك للحكومة، كل البلد حتشهد عليك، وتاخد إعدام وبرضه بيوتنا حتتحرق.

- أمال عاوزه إيه انتي والناس اللي جايباهم معاكي دول؟

- دول عمامك وخلانك وكبار عيلتنا، اتفقوا إنك تسلم نفسك جُودَه لعيلة (أبو العطا)!

- إنتي يامه عاوزاني أشيل كفن، وأروح لبيت (أبو العطا) وأرقد على الأرض، ويعفصوا علي برجليهم؟!

-يابنى ضحى عشان عيلتنا والناس الكبيره اللى جاتلك!.

- لا يامه حرام عليكي أنا أضرب خزنة في صدري وأموت أشرف لى!

- يابني لو مت، برضه ده مش حيشفي غليلهم، البلد كلها ضدنا، لو سلمت نفسك جُوده لعيلة (أبو العطا) الدنيا حتهدى، والناس اللي ولادهم ماتوا يوم الفرح نقدر نراضيهم وندفع الدية!.

- يامه، حرام ترضي على ولد فاوى يرقد على الأرض زي البهيم ويغموا عنيه!

- يا حساني إنت بتفدي العيله كلها، ومحدش حينسى اللي عملته ده، والناس كلها عارفه إنك أرجل واحد في عيلة فاوى.

- خلاص يامه أنا ميخلصنيش أشوف بيوتنا مهدودة، وأرضنا محروقة، قولي لعمامي: إني موافق إني أسلم نفسي جُوده!.

****

(٣)

دارت مفاوضات كثيرة، وتدخلت الحكومة وأكابر البلاد، لتحديد مبلغ دية على عائلة فاوى، نظير قتلهم أبرياء من عائلات ليس لها صلة بالصراع القائم بين عائلة فاوى و(أبو العطا)، تحرك شيوخ وعقلاء عائلة فاوى، لجمع الدية من أبناء العائلة العاملين بدول الخليج، وما أكثرهم!

اتفق الجميع على الصلح بعد قبول حساني تقديم نفسه جُوده، ويحمل كفنه لأهل القتلى من عائلة (أبو العطا)، وأعدت العدة للجمع الغفير، وأُقِيم صيوان كبير تحت حراسة الشرطة ورجال الأمن والمباحث، وذهب أعمام حساني؛ لإحضاره من مخبئه.

****

يوم مهيب لم تشهد له القرية مثيلا من قبل، قوات الشرطة تحيط بالبلدة ولا تترك إنسانا أو دابة يدخل أو يخرج من القرية.

من الصباح الباكر، جميع البيوت مغلقة لا زرع أو حصاد أو ريّ، اليوم حدث جلل، داخل بيوت أهل القرية الحديث عن حدث غير مسبوق، لم يتوقعه أو يتخيله عاقل أو مجنون من أهل القرية، من يصدق أن حساني فاوى سوف تُعصَب عيناه، ويرقد على الأرض، كلٌّ منهم يضع يده على قلبه متمنياً غروب الشمس ونهاية اليوم.

داخل الصيوان المقام في أرض عائلة (أبو العطا)، من بعد أذان العصر والشيوخ يقرأون القرآن، عسى أن تهدئ كلمات الرحمن النار المتأججة في نفوس الشاب.

يعلن أحد أكابر المفاوضين، وقد تم إحضاره من محافظة قريبة، لما يتمتع به من حلاوة اللسان، والقدرة على الإقناع في مثل تلك المواقف، التي تتطلب الحكمة والفراسة وسرعة البديهة.

يتلو على الجمع بعض آيات من القرآن الكريم، مستشهدا بالأحاديث الشريفة التي تحض على الخير، وحقن الدماء، ليعطي إشارة لأحد معاونيه.

يدخل أخيراً حساني، منكسراً، مصفر الوجه، مرتعدا، حاملا كفنا أبيض بين ذراعيه، لا تقوى قدماه على حمله!.

يعلو صوت المفاوض الله أكبر، الله أكبر، وحدوا الله!.

يمر حساني في ممر ضيق من البشر تتلقفه اللعنات والشتائم، ومن يستطع أن يصل إليه يبصق عليه، وبعض الشباب تحمس وقذفه بالأحذية والنعال، وسط صياح المفاوض بالصلاة على النبي.

مع كل خطوة يخطوها حساني، تتزايد اللعنات والبصق على وجهه، ولا تجد الشرطة ولا المفاوض وأعوانه سبيلا في الحفاظ عليه، إلا

أن يجبروه على الاستمرار في الركض في الممر؛ تحاشياً لاندفاع الشباب وإهلاكه.

حتى يصل إلى نهاية الممر، يجد رجلاً كبيرا من أبناء عائلة (أبو العطا) يحتضنه ويتصور الجمع أنه يحتضنه تعبيرا عن السماحة، ولكنه يضع على عينيه رباطا أسود عتيما، ويرقده على الأرض. والميكرفون في يد المفاوض مرددا الله أكبر، الله أكبر.

****

تاركين حساني معصوب العينين، راقداً على الأرض بجلبابه، حوله المفاوض ومعاونوه يحرسونه من بصق الشباب، والكثير من شباب عائلة (أبو العطا) يجاهد للوصول إليه وهو راقد أرضاً، فيعطيه رفسة من حذاء أو نعلٍ، ينكب المفاوض مع بعض من رجال الأمن على حساني؛ لحماية رأسه التي إن طالها الشباب حطموها.

يُحْضِر أحد رجال عائلة (فاوى) كبشاً ضخما وسكيناً حادا كبير الحجم، يرقد الخروف بجوار حساني، ويَحْضُر أحد أبناء عائلة (أبو العطا)، يمسك سكينا وأمامه الكبش راقدا وحساني بجواره دون حراك، والمفاوض لا يكل ولا يمل من الصياح بالتكبير.

يقترب الشاب حاملا السكين من حساني تاركاً الكبش، وسط دهشة الجميع من العائلات ورجال الأمن، ليقفز أحد كبراء عائلة (أبو العطا) ممسكا بالسكين قبل أن ينحر الشاب رقبة حساني.

يصاب كبير العائلة في يده، ويلتف رجال الأمن حول الشاب ويخرجونه من الصيوان وسط تكبيرات المفاوض، الذي أحس بالخطر الداهم على سمعته التي كادت أن تذهب لو قام الشاب بذبح حساني، يلتقط السكين شقيق كبير العائلة المصاب في يديه ليذبح الكبش، وتعم التكبيرات وتنهال الدموع من رقيقي القلوب.

****

باتت البلدة مطمئنة، بعدما دفعت عائلة فاوى الدية، وسلمت الجُوده وحساني إلى عائلة (أبو العطا)، لكن عائلة (أبو العطا) أخذت حساني وتحفظت عليه في بيت من بيوتها، خشية أن يبطش به الشباب، فهل تطول أيام حساني في التحفظ عليه؟!

لا يزوره سوى أحد كبار العائلة يوميا، حاملاً بعضاً من الطعام والشراب.

****

تمضي الأيام ويتساءل حساني: كم تطول مدة إقامته في منازل عائلة (أبو العطا)؟!

يجيبه مضيفه، بأنه يوم أن قدم كفنه أمام الجميع فإنه قد مات أمام عائلته وأهله!. وأنه منذ ذلك التاريخ هو ميت في نظر عائلة فاوى، وأنه مولود جديد لعائلة (أبو العطا)، يربونه كما يحلو لهم، وأن عليه الانصياع لأوامرهم، والعمل في حقولهم ورعاية بهائمهم، دون أجر، فهو ملك لهم وليس عليه سوى الطاعة.

تمر شهور على حساني من المهانة والذلة، يعمل في حقول عائلة (أبو العطا) ينتقل كل أسبوع من حقل لآخر، يروي الفدادين ويرعى البهائم، وفى نهاية اليوم يقصد المكان المخصص لإيوائه، يغفو ولا ينام، خشية قتله من أحد شباب عائلة أبو العطا وهو أعزل، حتى الفأس محروم من رفعه.

من يوم الجُوده لم يقابل حساني أحداً من عائلته أو أهله، حتى أمه محرم عليها دخول منازل عائلة (أبو العطا)، وكبراء العائلة الذين توسلوا له سابقا ليفديهم وينقذ بيوتهم وأرضهم، تركوه خادماً ذليلاً في أرض وبهائم عائلة (أبو العطا)!.

لم يعد يحتمل أو يقبل ما آل إليه حاله، قرر الهرب من عائلة (أبو العطا)، ومن شماتة شبابهم، ومن إذلاله طوال النهار، وخوفه من القتل طوال الليل.

هارباً من القرية متسللاً إلى المدينة ليجد نفسه في محطة القطار، متسائلا هل يستقل القطار القادم بسرعة إلى القاهرة أم الإسكندرية؟، وهل يترك كل همومه وأحزانه خلفه!؟

وهل هروبه من القرية يريحه من ذل عائلة (أبو العطا)، ومن تنصل عائلته له بعد فدائه لهم؟

بدون تردد ودون أن يحصل على تذكرة من شباك التذاكر، ومع إعلان ناظر المحطة قدوم القطار الاكسبريس المتجه إلى الإسكندرية.

استجمع شجاعته الماضية وجسارته التي طالما ارتعب منها أهل قريته، ليواجه القطار، يقفز من الرصيف متحدياً مصيره وجرار القطار أمامه يعوي، نافخاً صدره بأنفاس علها تكون آخر أنفاس.

تتمدد أشلاؤه تحت عجلات القطار، وتنتقل به سيارة الإسعاف لدفنه في البلدة.

****

عند وصول الإسعاف إلى مركز الشرطة للاستعلام عمن يستلم جثمانه، يتساءل الخفير النظامي أمام مركز الشرطة محدثاً زميله:

- هي عيلة (أبو العطا) حتاخد العزا فيه؟!

ليجيبه زميله بكل ثقة:

- لا ياواد عمي، المرحوم حيرجع لعيلته الأصلية، عائلة فاوى تدفنه وتنصب عزاه في الساحة.

- لا الأصول، طالما عائلة فاوى قدمت فيه الجُوده كده، جنازته على عيلة أبو العطا!

- عموما الإسعاف جوه عند المأمور، وشكلها كده حنطلع مع الإسعاف، ندفن الأشلاء في الجبانة من غير عزا ومحدش حيفتح الساحة.

- كلامك مظبوط، مين في العيلتين حيجيب مقرئين ويدبح ويعمل ليله!

"انتهت قصة حساني كما تصورها خفراء المركز "

الصياد

(١)

بطلنا في حكايا الساحة هو صالح سنوسي، صالح شاب في الخامسة عشر من عمره، منطوٍ لا يستطيع اللهو أو اللعب مع أقرانه لسوء معاملتهم له، والاستهزاء من هيئته المختلفة عن باقي أقرانه.

لأن وجه صالح ناصع البياض، بحمرة شديدة على الجبهة، وجلد سميك يغطى جسمه، كما لو كان قشورا تغطي جلده، أصابع يديه صغيرة ومندمجة كأصابع الضفدع، وكذلك الحال في أصابع قدميه، فالملتصق فيها أكثر من المنفصل، ظهره محنيّ مثل الكهول!

في بدايات الليل، وفي أشهر الصيف الطويلة يخرج الصيادون من أبناء القرية ومعهم الغزل والجوبيا، ورجاء لرب العالمين؛ حتى يرزقهم ما يسد أفواه أسرهم!

ينشر سنوسي شباكه على الترعة في مكان يحضر له يومياً، بعيداً عن باقي الصيادين، فكل صياد له مساحة من الترعة لا يجرؤ على الابتعاد عنها، أو اختراق مساحة صياد آخر إلا بالاتفاق، فأحيانا يغيب صياد فيسمح لآخر بالصيد في مساحته، على أن يعطيه جزءا مما جاد به البحر عليه.

****

ينتظر سنوسي حتى انبلاج الفجر، وعندها يبدأ مع باقي الصيادين في سحب شباكهم، يجد سنوسي شبكته قد امتلأت، لدرجة تمكن بعض السمك من القفز والعودة للمياه.

وسط ذهول باقي الصيادين ومعظمهم خرجت شباكهم فارغة، ليخرج سنوسي إلى السوق ويبيع أسماكه، وسط دهشة التجار لعدم وجود سمك من باقي الصيادين إلا أقل القليل.

استمر الحال لأسابيع، سنوسي شباكه لا تنضب من الأسماك مختلفة الأحجام والألوان، بعضها لم نشهده في البلدة منذ سنوات، وباقي الصيادين شباكهم فارغة أومحملة بخيبة الأمل!

يتآمر باقي الصيادين على سنوسي، متخذين من رزقه اليومي الوفير، ذريعة لاتهامه بعمل أعمال سحرية، أو الاستعانة بجن يساعده في اصطياد أسماك البحر، التي تهرب من شباكهم وتتركهم يقاسون الفقر والجوع.

بعد صلاة العشاء في الجامع الكبير، يتخذون قراراً بطرد سنوسي من أماكن الصيد داخل البحيرة، وإحراق قاربه، بل وضربه بشدة ليعود إلى زوجته مصاباً بكدمات وجروح متفرقة في جسده.

أسابيع قضاها في المنزل حتى تعافى، وخرج ليجد ترعة صغيرة بعيدة عن القرية لا يزورها الصيادون؛ لندرة الأسماك في مياهها.

يضع شباكه، فيهاجمه سلطان النوم لساعات، وعند استيقاظه يجد الفجر قارب على السطوع، ويجد شبكته بجواره مملوءة

بالأسماك من كل نوع وحجم ولون، ينطلق بها إلى السوق، عله يبيعها ويشتري بثمنها طعاماً له ولزوجته التي أضناها الجوع والتعب من أسابيع مكوثه بالمنزل.

****

تغيرت حياته وأخفى عن الجميع مكان صيده، بل وكان يغير مكانه كل أسبوع، ويضع شباكه ويعود لمنزله نائما بجوار زوجته، وقبل الفجر يعود، ليجد شبكته مملوءة بالأسماك، ليتخذ طريقه إلى السوق حتى أصبح سنوسي من أكبر تجار السمك، وله احترامه بين الصيادين، وبرزقه الوفير أصبح له شأن في سعر السمك.

شهور مرت والحال من حسن إلى أحسن، والرزق من وفير إلى أوفر، حتى جاء اليوم الذي وجد فيه شباكه فارغة، ناظراً حوله عله يجد من سرق منه رزقه، باحثاً بين أغصان البوص والحلف، عله يجد دليلاً يقوده إلى السارق.

بين الليل والنهار يسمع صوتا بين البوص والغاب ينادي عليه بصوت ضعيف، ارتعب خوفاً وظنه أحد الغرقى، يذهب إلى مصدر الصوت فيجد شخصاً لا يميزه رجلاً أو امرأة، راكعا على الأرض، بشعر أسود كثيف، يخفي وجهه تماما، وصوت ناعم يحدثه باسمه.

يرتعب سنوسي ويترك شباكه وأدواته، ويهرب إلى منزله، فيحكي لامرأته ما حدث معه على شاطئ البحر!.

****

تقوم بإشعال البخور ورقيته، وتحثه على الذهاب إلى نفس المكان، ووضع شباكه معللة له ما حدث، بأنه أوهام من ظلمة الليل العتيم؛ خوفاً من أن يتملكه الرعب ولا يعود للصيد مجدداً وتعود أيام الفقر والعوز، تشجعه وتحثه على الخروج، عله يجد الرزق الوفير الذي نقلهم من حياة الفقر إلى حياة الاستقرار.

ليالي طويلة يذهب إلى المكان الذي سمع وشاهد من ينادي عليه، وبعد انتظار لساعات طويلة، يجد شباكه فارغة.

حتى كانت إحدى الليالي، يسمع ذات الصوت الناعم والشعر الكثيف تناديه، وتحدثه بأنها كانت تحضر له السمك منذ شهور وأنها تحبه، وتشتاق إليه وتطلب منه أن يتزوجها، وسوف تعطيه مهراً كبيراً من أغلى الأسماك وأندرها.

يهرب منها سنوسي عائدا إلى زوجته، والتي تحذره من الذهاب مره أخرى إلى البحر!

****

تمر السنون ويمرض سنوسي، وهو الصياد الماهر الذي عاش حياته بمركب صغير داخل الترع والمصارف، وأحيانا في البحر الكبير (نهر النيل) يصطاد السمك من كل نوع وصنف، دائما شباكه مملوءة بالأسماك، حتى صار كهلا عجوزاً لايستطيع الخروج من منزله، وعلى نقيض كل أهل القرية، منع وحرم ابنه الوحيد صالح من نزول البحر.

مع طول مدة مرضه وزيادة وهنه وضعفه، شعر بقرب أجله، فاستأذن أم صالح أن تتركه مع صالح لبرهة، حتى يحكي له قصته مع ذات الشعر الكثيف والتي أسماها جلنار.

- تعال يا صالح اقعد جنبي، علشان صوتي مش طالع، اقفل الباب كويس بدل ما أمك تدخل علينا!

- حاضر، بس أنت كويس وربنا حيكرمك بالشفا إن شاء الله.

- اسمع بس وبلاش مناهته، هات مصحف علشان حتحلف عليه!

- حاضر اللي أنت عاوزه كله حعمله، بس أنت هدي نفسك.

- شوف يا صالح، أنا زمان كنت شاب أكبر منك بشويه، وجدك كان صياد، وكان بياخدنى معاه كل ليله نصطاد، وقبل الفجر نلم الغزل ونرجع بالرزق على السوق، نبيعه ومن تمنه ناكل ونعيش عيشه كويسه، جدك كان رزقه واسع.

- الله يرحمه يابا أنا مشفتهوش، وكان نفسى أشوفه!

- أهل البلد استكتروا عليه، إنه كل يوم يرجع بالشبك محمل سمك، واللي معاهم في شباكهم قليل ميكفيش أكل لعيالهم، المهم قعد جدك معاهم وقالهم ده رزق، الكلام ده معجبهمش ومن يومها وهما قسموا الترعه والبحر الكبير!

- إزاي يابا قسموا الترعه والبحر؟!

- على طول بلدنا عملوا علامات، أبويا من النخلة اللي على البر الشرقي لغاية التوته اللي على البر الغربي، وده لغاية الكوبري، وده عند مسقى عيلة الحوايته، وبكده كل واحد بقى ينزل في مكان محدد. لو نزل في مكان حد تانى يتغرم ويتاخد كل السمك اللي معاه.

- طب وجدي عمل إيه؟!

- جدك زيه زي باقي الناس، التزم بمكانه، ولغاية ما كبرت أنا وعمك إبراهيم، جدك مات، بس مكان الصيد متغيرش، محدش يقدر يغير مكانه ولا يدخل على مكان حد.

- طيب لما جدي مات، إنت خدت مكانه، طب وعمي إبراهيم كان يصطاد معاك من نفس المكان؟

- عمك اشتغل معايا كام شهر ولما لقى الرزق ميفتحش بيتين، سافر كفر الشيخ وربنا رزقه هناك من وسع.

- طب ودلوقت إنت عيان مين بيروح يصطاد مكانك وفي ميتك!؟

- أنا يا بني موصي منصور، ده راجل من ناسنا بيروح يصطاد في مكانه ويصطاد لينا كمان وبيبع الرزق وبيدينا تلت الرزق.

- طب مش كده حرام، هو ياخد تلتين وانت تلت طب تبقى بالنص!

- هو ده يا بني العرف في كار الصيادين، الصياد اللي بيشتغل ياخد تلتين.

- خلاص يابا، أنا من بكره أنزل مع عم منصور، أتعلم لغاية ما أعرف كل حاجه وبعدين أشتغل وأجيب السمك، وأنزل السوق زي باقي الصيادين.

- ما هو ده اللي أنا جايبك عشانه يا صالح، إنت يا بني لو بتحب أبوك إوعى تروح البحر ولا تقرب من الشط خالص.

- ليه بس يابا؟! أنا ياما اتحايلت عليك، علشان تاخدني معاك البحر، وأنت كنت بتضربني وتحبسني في البيت!

- أنا حقولك ليه، بس أوعى تقول لأمك على اللي حقوله، إنت حلفت على الختمة الشريفة.

- حاضر يابا قولي بس ليه مانعني أروح البحر، حتى كل صحابي بيلعبوا ويعوموا في البحر، وأنت كنت بتضربني لو فكرت أروح معاهم!

- يا صالح إنت طول حياتك تبعد عن البحر، ومتقربش من الشط خالص.

- اشمعنى أنا يابا، هو أنا غير بقية الناس، أنا عاوز أبقى صياد زيك يابا!

- أيوه انت غير كل البشر، أنا حقولك الحكايه، بس متقاطعنيش علشان ألحق أخلص، قبل أمك ما تحس بينا.

- حاضر يابا حسكت خالص وأسمعك!

- أنا كنت غير باقي الصيادين، كانت شبكتي مليانه بالرزق، كل ليلة أنزل السوق أبيع بالسعر اللي أنا عاوزه.

- إزاى يابا كنت بتجيب سمك كتير؟ هو أنت مش زي باقى الصيادين!

- لا يا صالح أنا مكنتش بشتغل، أنا كنت بسيب الغزل في البحر، وأرجع أنام جنب أمك، وقبل الفجر أروح ألاقي الشبك مليان وطالع على الشط!

- إزاي يابا، مين كان بيصطاد لك ده كله؟!

- أمك، هي اللي كانت بتملى الشبك بالسمك وتطلعه لغاية بره!

- أمي إزاي! مش بتقول إنها كانت بتنام جنبك في البيت؟!

- يا صالح اللي بره دى مش أمك، دي اللي ربتك وكبرتك، أمك الحقيقية جلنار!

- جلنار مين يابا إنت تعبان، أروح أجيب لك دوا من الصيدلية ولا أعمل إيه؟!

- تقعد ساكت ومتفتحش بقك تاني وتسمع اللي حقوله.

- حاضر يابا، حسكت!

****

- أنا من سنين بعيدة طلعت لي جنية من البحر اسمها جلنار، هي اللي كانت بتملا الشبك بالسمك، وتسيبه على الشط، ولما أرجع آخده وأروح على السوق، الجنية دي هي أمك الحقيقية!

- إزاي بس يابا!

- أمك اللي بره دي متعرفش عنها أي حاجة، لأنها لو عرفت زي باقي النسوان كانت حتقولي متروحش تاني المكان ده، والدنيا كانت صعبة معانا، ومعنديش شغلانة تانية غير الصيد والسمك، فسبت أمك تفهم إنه رزق وجاي لنا.

- وبعدين يابا حصل إيه؟!

- بقيت كل يوم بعد العشا أروح أحط الشبك وأتكلم مع جلنار عن حياة البحر، واللي بيحصل فيه، وأقعد شويه معاها، بعدين أروح البيت أنام وأرجع قبل الفجر، ألاقي جلنار جابت سمك من كل حته وحطته في الشبكة، أبيعه وأعيش أنا وأمك أحسن عيشه، لغاية ما في يوم جلنار قالت لى:

- سنوسي، أنا لي شهور بأشتغل وأجيب لك سمك، مفيش صياد شافه قبلك.

- حصل، وأنا الحمد لله حياتي اتغيرت، بقيت صياد كبير لي كلمتي وسط الصيادين.

- طب ياسنوسي، ما فكرتش أنا بعمل كده ليه؟!

- أكيد عارفه ظروفي إنى فقير، بتساعديني وينوبك فيّ ثواب.

- سنوسي أنا كنت براقبك من زمان، من أيام ما كنت بحط السمك كله في شبكتك وباقي الصيادين بيتفرجوا عليك، وزعلت عليك لما الصيادين ضربوك وطردوك من البحر.

- ربنا يخليكي ويكرمك، أنا عارف إنك بتعملى فيّ معروف كبير، وكل يوم شبكتي مليانه ومستنيه على الشط.

- طيب مش تفهم أنا عاوزه منك حاجه ولا لأ، مقابل السمك اللي كل يوم بتاخده وتروح تبيعه!

- طب قولي لي عاوزه إيه؟! أنا مقدرش أنكر فضلك عليّ.

- عاوزه أجوزك ياسنوسي، أنا بحبك ومش قادره أسكت أكتر من كده!

- تجوزيني أزاي، إنتي جنّيه بحر، وأنا بني آدم، إزاى نجوز؟!

- كتير من الإنس متجوزين بنات من البحر، إنت بس متعرفش!

- أنا عمري ما سمعت عن إنس اجوز جنية بحر!

- متقولش عليّ جنيه، أنا اسمي جلنار، وبقدر أتكلم زيك، وأقدر أقعد بره الميه، بس مش كتير، إحنا حنجوز، وعاوزه أقولك حاجه حتفرحك.

- أنا مش عارف أقول إيه، بس إيه اللي حيفرحنى ده؟!

- إحنا في البحر، البنت لما يعجبها راجل هي اللي بتدفع المهر.

- طب كويس، وأنا مهري إيه يا ترى؟!

- مهرك كل يوم أفخم أنواع السمك اللي في كل البحور.

- طيب أنا خايف من حكاية الجواز دي، سبيني كام يوم أفكر!

- أنا عارفه صنف الإنس كويس، عاوز تاخد كل حاجه ببلاش، أنا مكنتش أفتكر إنك زيّ باقي الناس، بجد أنا اتصدمت فيك، أنا حبيتك وضحيت كتير علشان أكون ليك، وأنت خايف مني، أنا نازله الميه ومش حرجع تاني.

عادت جلنار إلى الماء، ودموعها لا تفارق عينيها بعد أن أحبت سنوسي لسنوات، دون أن تبوح له بحبها، وعندما صارحته بحبها ورغبتها في الزواج منه خذلها.

****

(٢)

عاد سنوسي إلى زوجته شارداً، وشبكته فارغة، في اليوم التالي عاد إلى البحر، إلى مكانه الذي تم سلبه منه سابقا، ولم يعترضه أحد من الصيادين بعد أن أصبح في الشهور الأخيرة له شأن في السوق.

تمضي أيام وأسابيع وشباكه خاوية من السمك، وباقي الصيادين يسخرون منه بعد أن كان يورد للتجار يوميا، أصبح ما يحضره من السمك لا يكاد يكفي لغذائه هو وزوجته.

****

أيقن سنوسي أنه في ضائقة، لن يخرج منها سالماً، فقد رحلت أيام جلنار السمان وحلت عليه أيام قاسية عجاف، ليس فيها سمك يبيعه، ولا أمل في ملء شباكه بعد أن رحلت جلنار، وما ادخره في الماضى تبخر مع طول أيامه العجاف.

جمع شباكه وشجاعته وعاد إلى مكانه القديم، وبعد أذان العشاء وضع شباكه وأخذ يصيح منادياً جلنار.

أيام وأسابيع يناديها، ولا يسمع منها همسا أو يجد منها سمكاً حتى وضع قدميه في الماء وأخذ يبكي؛ نادماً على أيام جلنار وسمك جلنار، يجمع شبكته ويعود جائعاً ينتظر اللوم من زوجته وبيتهم خاوٍ من الزاد.

في اليوم الأخير، وقبل أن يترك البلدة ويرحل، قرر أن يرمي بشباكه في المياه، وأن ينزل بنفسه في ظلام الليل، يبحث وينادي على جلنار، علها تسمعه وتشفق عليه وتخرج، وتعطيه القليل من السمك يسد به جوعه وجوع زوجته.

عندما اقترب من نصف البحر والمياه العميقة، أحس بحركة حوله، فيجد جلنار تحتضنه من الخلف، غير مصدق أنها أخيرا عادت له.

تأخذه معها إلى عميق المياه، ويكتم أنفاسه حتى تدخل به إلى أحد الشقوق داخل النهر، يحتبس فيه بعض الهواء، لتريه من البحر ما لم يشاهده من قبل، ويهبط معها إلى أعماق أكثر وتعطيه من أنفاسها ما يحتاجه ليبقى على قيد الحياة!

يقضي الليلة معها تارة في شق، وتارة في كهف، وتارة تخرج به من الماء، ليستنشق الهواء النقيّ، ثم تعود به إلى الماء؛ ليقضيا ليلة حب، وتكون فيها جلنار زوجته بعد انتظار طويل.

****

تستمر جلنار كل ليلة في إمتاع سنوسي تارة بالاختباء معه داخل أحد الشقوق في أعماق النهر ومرة تأخذه إلى البحر الكبير في رحلة يرى فيها من الأسماك التي لم يرها طوال حياته، معه شباكه تُحضر له كل ما يتمناه، عائدا من رحلته اليومية مفعم بالنشوة والسعادة وشباكه تحتاج إلى العديد من الشباب؛ ليرفعوها معه.

بات سنوسي يبيع أسماكه في المدينة لارتفاع سعرها، وطابت له الحياة، واشترى دكانا كبيرا لتخزين الأسماك، كما اشترى سيارة مجهزة لنقل الأسماك المثلجة إلى المدينة؛ لبيعها بأغلى الأثمان،

ولِمَ لا؟! فما يحضره سنوسي يوميًّاً لم تشهد له أسواق القرية ولا المدينة مثيلاً من قبل!.

انتهى العام الأول على زواج سنوسي وجلنار، هي سعيدة بخدمته، وهو سعيد بحبها له وما تجلبه له كل ليلة من خيرات البحر.

****

قبل بداية العام الثاني من الزواج، أصبحت جلنار تحضر يوماً أو يومين فقط بالأسبوع، ويمضي سنوسي باقي الأيام في المياه وحيداً.

نضبت شباكه من الأسماك، وأخيراً صارحته وأبلغته أنها حامل وفي الشهور الأخيرة، وأنها لا تستطيع الخروج كثيراً، وسوف تغيب في المياه لعدة أسابيع حتى وقت الولادة!

****

انتاب سنوسي القلق من غياب جلنار، تساءل هل يمكن أن يحدث حمل بعد معاشرته لها؟!

جنية البحر وإنسان، هل تثمر العلاقة التي امتدت لشهور بينهما وتطرح أطفالاً؟! حدثته من قبل عن أن بعض الأسماك تلد!، هل تنجب جلنار منه وتلد كما حدثته؟! هل كانت صادقة معه

عندما حدثته أن بنات البحر يتزوجن ويعاشرن أبناء الإنس، أم أنها تتهرب منه وأحبت صيادا آخر؟!

تحدثه نفسه بأن الأنثى هي الأنثى في البر وفي البحر، طالما اختفت واختلقت تلك القصة حتى تتفرغ لصياد آخر تحبه وتأخذه معها إلى البحر كما فعلت معه، هل تفعلها جلنار، أم أنها لازالت تحبه، وسوف تعود إليه بعد فترة، لعل الصياد الذي اختارته، يخشى أن ينزل معها المياه كما فعل هو، ربما يخذلها وتعود إليه؟!

سوف أنتظرها كل ليلة، في موعدنا ولا خوف على تجارتي وأسرتي فدكاني في السوق يأخذ السمك من الصيادين، وأنقله بالسيارة محملاً بالثلج وأعود لأستريح، وأحضر بعد صلاة العشاء أنتظر ظهور جلنار.

****

(٣)

بعد أسبوعين، وقبل أن يصل إلى مكان انتظارها، يسمع جلنار تناديه ليعدو بسرعة فيجدها على الشط تنتظره، وهي تعبة لا تقوى على الحركة مثلما اعتاد رؤيتها!

- مالك جلنار، شكلك تعبانه وغايبه ليكي أسبوعين حصل إيه؟!

- مش مهم، أنا دلوقت ولدت الفجر تلات عيال، ولدين وبنت، أنا قعدت بيهم في الميه تحت، بس للأسف هما واخدين منك أكتر مني، كل ما أنزل بيهم الميه يتخنقوا، أنا طلعتهم وسبتهم تحت البوص والغاب هناك!

- إيه اللي بتقوليه ده، ولدتي عيال صغيره، أنا مش مصدق هما فين؟!

- عند البوص اللي هناك ده، قعدت معاهم كتير لغاية ما نَفَسِي كان حيروح، فنزلت الميه، أنا طول اليوم طالعه نازله في الشمس، خايفه حد يشوفني، أو كلب ياكل العيال، بسرعه خدهم من هنا، أنا حنزل الميه لو قعدت أكتر من كده حموت.

- جلنار استني، إنتي بتقولي إيه، عيال إيه اللي ولدتيهم دول؟!

تهبط جلنار إلى المياه العميقة بعد أن انتظرت طويلاً في حرارة الشمس، يذهب سنوسي إلى المكان الذي أشارت إليه جلنار.

يجد ثلاثة أطفال صغار، يبكون من الجوع، ومازالت عيونهم مغمضة، يفزع سنوسي من رؤيتهم، فهيئتهم تختلف عن أطفالنا كثيرا، انتابه رعب وخوف، قرر أن يتركهم ويهرب؛ خوفاً من الفضيحة وأن ينكشف أمره في معاشرته لجنية البحر.

ينطلق عدواً خائفاً مسرعاً إلى بيته، عله يجد في أحضان امرأته الأمان!

****

قبل أن يصل إلى بيته يسمع أنين الأطفال في أذنه، تُرَى هل يكون أطفاله من جلنار وجبة شهية للكلاب والذئاب ونحن في بداية الليل، أم تجدهم أفعى من حيات البوص والغاب وتلتهمهم؟

يعود مسرعاً للحاق بأطفاله، وعند المكان الذي تركهم فيه، لا يجد سوى طفل وحيد، ويسمع نباح كلاب كثيرة حوله لعلها تنهش باقي أطفاله!

يأخذ الطفل في أحضانه والكلاب خلفه كمن أخذ عشاءها وهرب، يعود إلى زوجته حاملاً الطفل مرتعداً غير مصدق بما حدثته به جلنار، ومشهد الكلاب الجائعة وهي تعدو خلفه؛ ترجوه أن يترك طفله؛ ليكتمل عشاؤهم وأنيابهم تكسوها دماء باقي أطفاله.

- الحقيني، لقيت عيل لسه مولود!

- لقيته فين ده، يا ساتر يا رب، ومين اللي جالها قلب ترمي عيل لسه مولود كده؟!

- أنا سمعت صوت بين البوص والغاب على شط البحر، لما قربت لقيته عيل صغير!

- مين الجاحده اللي رمته حتى بدون هدوم؟!

- طب أعمل إيه قولي لي؟!

- سخن شويه ميه نحميه، ونشيل من على جلده التراب والدم ده، وهات بطانيه بسرعه ندفيه!

- حاضر بس ده مش يبقى عاوز لبن يشربه! حنجيب له لبن من فين؟!

- يا سنوسي هات الميه السخنه والبطانيه، الواد بيترعش، أول يومين بعد الولاده المولود يشرب كراويه، ينسون أي أعشاب.

- طب كويس، إحنا عندنا أعشاب في البيت؟!

- عندنا كل حاجه، بس أنت هات معلقه صغيره نشربه بيها.

****

تستمر زوجة سنوسي في رعاية الطفل، وهي لم تنجب أطفالاً، تذهب به يومياً إلى مرضعته، وإن جفت مرضعة ذهبت لأخرى حتى حان وقت فطامه.

بات الطفل حديث القرية بمظهره الغريب، عيون ضيقة وبشرة بيضاء بحمرة تصبغ أجزاء من الجلد دون أخرى، وظهر محنيّ انحناء الكهول، وأصابع يدين وقدمين الملتصق منها أكثر من الحُر، ليطلق عليه سنوسي اسم صالح، ويشيع في البلدة أن زوجته بعد طول السنين أنجبت له صالح.

يستفيق صالح من رواية أبيه وبحذر محدثاً أباه:

- يابا أنت بتتكلم من عقلك، ولا المرض تاعبك؟!

- أمك عارفه إنها مبتخلفش، بس أنا كدبت عليها وقلت إني لقيتك على شط الترعه!.

- طب يابا وفين أمى دي؟!

- أمك رمتك والكلاب كلت أخواتك، ولو قربت من الشط أو نزلت البحر حتغرقك وتموتك زي ما موتت أخواتك، يا بني اوعى تقرب للبحر.

- حاضر يابا، إنت بس استريح دلوقتي ومتتعبش نفسك.

- يا بني أنا عاوز أموت وأنا مرتاح، أوعدني وهات المصحف واحلف إنك مش حتنزل البحر طول عمرك.

- يابا ارتاح، الحمد لله تجارة السمك عايشين منها كويس، مش حروح البحر، ارتاح يابا وبلاش كلام، إنت نَفَسَك حيروح منك!

- هات المصحف وحط إيدك واحلف عليه.

****

أسابيع قليلة أمضاها سنوسي في فراش المرض، ثم فاضت روحه إلى بارئها، بعد أن أراح ضميره بروايته لصالح، عن قصة زواجه بجلنار، وأنه ثمرة هذا الزواج.

استمر صالح في اتباع مسلك والده في تجارة الأسماك من داخل محله، وترك مهمة الصيد لمنصور ذلك الرجل الطيب، يصيد داخل المساحة المخصصة للمرحوم سنوسي، ويعطي لابنه صالح الثلث، وصالح قانع بالثلث ويتاجر مع باقي الصيادين، يشتري منهم أسماكهم لينقلها بسيارة أبيه المثلجة إلى المدينة، تباع بأثمان جيدة تجعل من صالح أقوى تجار السمك في بلدته.

****

سنون طويلة وصالح يحافظ على سر أبيه، وعلى العهد بالابتعاد عن البحر والمياه، تجارته رائجة وأموره ميسرة.

لم يفكر في الزواج، لصعوبة أن يجد بنتا من القرية توافق عليه، وهو بهيئته وملامحه الغريبة عن بني البشر!.

****

كان يبدو أنه يوم عادى، وصالح جالساً أمام دكانه الذي لا يبعد كثيرا عن مياه البحر، بجوار مرسى مراكب الصيد، يشاهد تجمع لأهل البلدة مع أصوات عالية كلها تصرخ طلباً للنجدة، يترك دكانه ويذهب يستطلع الأمر، سائلاً أحد الناظرين للمشهد داخل البحر!

- خير، إيه الحكايه؟!

- بنت صغيره بتلعب بكوره، وقعت في الميه، البنت رمت نفسها في البحر علشان تجيب الكوره!

- البحر هنا غريق؟!

- آه، بس البنت متعرفش، خافت أمها تضربها لو مجبتش الكوره، البنت لما نزلت، التيار شدها، وأمها شافتها قعدت تصوت ونزلت وراها!

- يا ستار، يا رب سلم، كده حيغرقوا الاتنين، محدش ينقذهم، فين صيادين البلد؟!

- الصيادين بعيد، بس فيه اتنين شباب نزلوا وراهم، ربك يسترها!

****

يحاول الشابان الوصول إلى الطفلة وأمها، لكن تيار المياه شديد، يقذفهم بعيداً عن الشط، يتسارع خروج الطفلة إلى سطح الماء ثم الغوص صارخة على أمها، والأم تصارع المياه للعودة إلى الشاطئ، تاركة ابنتها تواجه الموت بمفردها.

محاولات يائسة من أحد الشباب عله ينجح في الوصول للطفلة، ولكن دون جدوى، فالمسافة لازالت بعيدة، والشاب الآخر أنهكه التعب، يبدو أن مصيره اقترب من مصير الطفلة.

وسط فزع أهالي البلدة من هول المشهد، وعدم قدرة المزيد من المتطوعين للنزول إلى المياه، يتفاجأ الجميع بصالح بن

سنوسي الصياد خالعا ملابسه، قافزا إلى المياه دون وعي أو تفكير؛ لنجدة الغرقى!

في لحظات يحتضن الطفلة الصغيرة، مقترباً بها من الشاطئ، يساعده الكثير من الشباب لالتقاط الطفلة منه.

يعود بسرعة إلى المياه ويُحْضِر معه الأم، ومرة أخرى تتلوها أخرى لاسترداد الشابين وسط ذهول كل الأهالى الذين يعرفون صالح جيدا، وأنهم لم يشاهدوه يسبح في البحر طوال حياته.

****

انتشرت قصة صالح وإنقاذه للبنت وأمها والشابين في ربوع القرية، بل في القرى المجاورة، وبات صالح حديث المساء والسهرة في كل مقاهي ودواوين القرى، بعد أن قرر أن يخون عهد سنوسي الأب وينزل إلى البحر.

انطلق صالح وأصبح صيادا ماهرا تتزين شباكه كل يوم بأضخم وأغلى الأسماك، باع صالح المركب الصغير واشترى مركب صيد أكبر، وأصبح يغيب في البحر لأيام يعود بعدها محملا بالخيرات.

مع المركب الكبير انضم له عمال بحرية، يغيبون مع صالح لأيام داخل البحر، متعجبين وهم بحرية منذ سنوات طويلة، ولكن يقودهم صالح إلى أماكن عشش الأسماك بدقة متناهية.

بَحريّة المركب كلهم دهشة وانبهار، من قدرته على تحديد أماكن الصيد بدقة متناهية، لا أحد يعلم كيف أتت له تلك الخبرة، وهو طوال حياته لم يبتل جسده بماء البحر.

كثيرا ما يقع أحد البحارة من مركب صالح أو غيره من المراكب فى البحر، ومع شدة التيار وارتفاع الأمواج يبتعد البحار عن المركب ولا تصل إليه الأحبال أوالعوامات، ويصله صالح في دقائق ليرفعه إلى سطح المركب، وبات صالح منقذ الأهالي من الغرق، وحديث البحارة والأهالي، طالما صالح بجانبك فلا تخشى البحر أو الغرق.

****

(٤)

بلغ صالح الثلاثين من العمر ولم يتزوج عن قناعته بأن مظهره لن يعجب بنات القرية، ألحت عليه كثيراً زوجة أبيه، والتي لا تعلم أنه يعلم أنها ليست أمه.

ذهبت إلى بيوت بنات القرية، ولم تترك بيتاً إلا وطرقته؛ بحثاً عن عروس لابنها صالح، حتى التقت بأسرة فقيرة في أطراف القرية، لهم ابنة وحيدة اسمها عفاف، بعد محاولات عديدة من الأم وإغراءات بالمال الوفير، الذي يملكه صالح من عمله في صيد وتجارة الأسماك، توافق الأسرة على زواج عفاف من صالح، بعد أن وضع أخوتها شروطاً لإتمام الزواج، من مهر مُغَالَى فيه، ومؤخر صداق، والكثير من المشغولات الذهبية.

****

أفراح وذبائح وموائد ممتدة لعشاء أهالى القرية وتجار السمك من القرى المجاورة والمدينة، جادت أم صالح بالكثير والكثير، فرحة وبهجة بزفاف ابنها الوحيد على عروسته الجميلة عفاف، صالح يمتطي فرسا أبيض مرتدياً جلباباً من الصوف الفاخر، أسفله جلباب آخر من القماش الأبيض اللامع (تكشيطه)، وعمة بيضاء

على رأسه، وتتمايل الخيول على نغمات المزمار وزغاريد الأم وأهل عفاف.

في ليلة تمنى صالح أن يكون والده سنوسي حياً ليسعد معه. يُزف صالح على عفاف وسط طلقات الرصاص والزغاريد، يدخل بها بعد طول انتظار إلى بيته الجديد.

- مبروك ياعروسه، ألف مبروك!

- أنا مكسوفه منك يا صالح، ممكن تطفي النور.

- حاضر، خدي راحتك، أنا حغير هدومي بره، ولما تخلصي ابقي نادي عليّ.

- ماشي يا صالح، بس متتأخرش علشان أنا بخاف!

" بعد وقت طويل، شعر به صالح كأنه الدهر، كانت عفاف تنادي زوجها "

- معلش، اتاخرت عليك، أصلي مكسوفه منك! بس تعال جنبي يا صالح، وطفي النور.

- أنا جنبك، ومش حسيبك.

- إنت ليه جلدك كله قشور كده يا صالح، إنت كده من زمان؟!

- أنا مولود كده، بس متخافيش أنا مش عيان ولا حاجه!

- صالح أنا مش قادره ألمسك، أنا خايفه، معلش سامحني بلاش النهارده!.

****

تمر الليلة التي تمناها صالح، والتي في سبيلها ضحى بالكثير من أمواله؛ حتى يشتري سعادته مع عفاف.

بعد ليلة زفافه، مرت ليالٍ وأسابيع وشهور ولا تظهر على عفاف أي علامات للحمل، وأم صالح تنتظر أن تحمل أولاد صالح بين يديها.

تحاول أم صالح بلطف أن تضيق الخناق على عفاف، علها تعرف علتها في عدم الحمل من ابنها الوحيد.

بكل قسوة وجرأة، تخبرها عفاف أن ابنها ما كان له أن يتزوج، تستمر عفاف في رفضها معاشرة زوجها صالح، ولا تتركه يتمكن من حقوقه الشرعية إلا بعد أن يبوح لها بسره كاملاً.

بعد اعترافه لها بأنه خليط بين البشر والسمك، ترفض أن تلين له، وتترك المنزل عائدة إلى أهلها.

****

ليالٍ طويلة يقضيها صالح في منزل أسرة عفاف، يرجوها أن تعود لبيته؛ خوفاً من افتضاح أمره أمام الصيادين وأهل بلدته.

أخبرت عفاف أخوتها عما أبلغها به صالح عن أمه الحقيقية، وأنه هجين بين البشر والسمك، لتساومه أسرتها، ورغماً عنه يذهب مع زوجته وأخوتها إلى المدينة وأمام موثق الشهر العقاريّ يكتب دكانه ومركبه وسيارته باسم عفاف.

يرضخ صالح لأهل زوجته وإن كانت أمه تحاول منعه، محذرة إياه من غدر زوجته وتنصحه بأن يدفع المؤخر ويرمي عليها يمين الطلاق، لكنها لا تعلم ما يخفيه صالح عنها وعن القرية كلها، وسره أصبح على طرف لسان عفاف وأخوتها، يتخذونه سلاحاً ضده وليس عليه سوى الاستسلام لهم!

لم يهنأ صالح بعروسه بعد أن عادت لمنزلها، حتى بعد أن كتب كل أملاكه وما تركه له أبوه سنوسي باسم عفاف.

****

تمر أشهر قليلة قضاها صالح في البحر، صياداً ماهراً في محاولة منه لنسيان ما حل به جراء زواجه بعفاف.

عائداً من البحر بعد رحلة استغرقت عدة أيام، حاملاً مع معاونيه طاولات السمك، ذاهباً إلى دكانه ليجد أخوة عفاف بالدكان بعد أن قاموا بتسجيل عقد البيع.

عارضين عليه ثمن بخس لما يحمله هو وصبيانه من الأسماك، وقبل أن تنفرج عقدة لسانه من المفاجأة.

يكون أحد أقارب عفاف صاعداً على مركب الصيد طالباً من البحارة النزول من المركب، بصفته المشتري والمالك الجديد للمركب، بعد أن قام بالشراء والتسجيل من عفاف زوجة صالح.

تعتصره نوبات الألم والندم مع الحسرة على ما آل إليه حاله من ضياع كل ثروته، وخشيته أن تبوح عفاف بسره إلى أمه وأهل القرية، يعود إلى البحر عله يجد فيه من تأنس له روحه.

****

تنتظره زوجة سنوسي على الشاطئ، وهي من ربته ووضعت في فمه أول شربة ماء، ولم يعد صالح مرة أخرى.

لم يُدفن في الجبانة واعتبرته القرية غريقاً في البحر، وأقامت له العزاء الذي يليق به، وارتدت عفاف ملابس الحداد على زوجها، ووقف أخوتها يتقبلون العزاء في صالح من أهالي القرية.

أغلقت الساحة أبوابها بعد ليالي عزاء صالح، تذهب أمه بعد خمسة عشر ليلة تنتظر عودته من البحر!

لم تحفظ عفاف ولا أخوتها سر صالح، الذي ضحى بحياته من أجل إخفائه، حكايات صالح مع البحر، يتردد صداها في الساحة مع كل واجب عزاء جديد.

يتساءل البحارة في القرية، هل غرق صالح وهو ابن البحور؟!

هل ذهب إلى أمه جلنار يشكو لها ما فعله البشر معه؟!

هل تحتضنه أمه بعد طول الغياب وتزوجه من جنيات البحر؟!

في الساحة وداخل الحوائط الصامتة، تسمع ما تتناقله ألسنة البحارة، أن صالحا مازال حياً، يظهر لهم في البحر وسط الأمواج العالية، يناوشهم ويشتتهم ويرعبهم حتى يتمكن منهم فيغرق المركب بمن فيه.

****

أرض العمدة

(١)

بطل قصتنا هو أبو زيد لم يولد بعد، والده منصور سعد من السعدنية، ابن عمدة بلدتنا يمتلك أكثر من خمسين فداناً من الأراضي الخصبة، لم تشفع له أمواله الكثيرة ولا فدادينه أن تؤهله ليشغل مركز أبيه، وقد خرجت العمدية من عائلة السعدنية وذهبت لأبناء الحوايتة.

حزن الكثير من أبناء عمومته؛ لضياع منصب العمدة من منصور، أو كما يحب أن يناديه أهل القرية بمنصور العمدة، ولكنهم يعلمون أن العمدة منصور يعاقر الخمر كل ليلة، يحضرها له أنور، الذي يتخذ من منزله حانوتاً للاتجار بالخمور.

بسبب الخمر وبعد التحريات استقر الأمر على استبعاد منصور سعد من العمدية، لتسعد الحوايتة بمنصب العمدية.

زوجته حسنات أم بطلنا (أبو زيد) امرأة تخطت الأربعينيات من العمر، سمينة الجسم، قليلة الجمال، شديدة الجوع، تلتهم بطة بمفردها وقت الغداء، أنجبت من البنين فؤاد ومرتضى، ومن البنات قدرية وفوقية، حامل في الشهر الرابع في بطل قصتنا.

كريمة في بيتها ونسبها، مائدتها لا تخلو من أفخر أنواع اللحوم البلدية والطيور المزغطة!.

****

يتفاخر منصور كل ليلة بأنه ابن العمدة، وأنه الأحق بالعمدية ويدعو أصدقاءه من شاكلته؛ لاحتساء أفخم أنواع الخمور، التي يحضرها أنور له حتى باب منزله، وبعد شرب الخمر مع الأصدقاء، وسط الدعوات بدوام الخير للعمدة منصور.

يأمر منصور خُدامه بإحضار أصناف الطعام الفاخر من الحمام والبط والديوك الرومي، والتي أعدتها حسنات لزوجها، بمعاونة الخدم بمنزلهم الفسيح الرحب.

ينامون قبل أذان الفجر كل ليلة، وما أجملها ليالي العمدة منصور!

خمور نقية معتقة، ليست مثل عرق البلح الحارق للحلق، الذي تقوم بعض بيوت القرية باستخراجه من البلح، وما أطيب طيور الحاجة حسنات، وهي تذوب في فم الضيوف!

****

ذاع صيت كرم منصور سعد، وخموره والولائم المنعقدة كل ليلة، تجتذب بعض كبار الموظفين من المدينة، وكذلك أعيان البلد من العائلات الأخرى، حتى أصبح الحضور يومياً بمندرة بيت العمدة منصور.

واجتذبت الموائد شخصيات جديدة لم تكن في الحسبان، فنجد أطباء وتجار وموظفين عموميين يحضرون خصيصاً من المدينة، بعضهم يعاقر الخمر، وبعضهم يتلذذ بأصناف الطعام مع احتساء الشاي والقهوة.

في الصباح يَحْضُر نبوي؛ لإنهاء حساب الأسبوع الماضي، نجده شابا نحيل الجسم، يستأذن في الدخول على الست حسنات، بشوشاً مبتسماً.

- صباح الخير ياست الناس، أنا معايا خمس ديوك رومي، وعشره جوز حمام، بس حاجه بيتي، واكلين قمح ودره مدشوشه، والحمام زغاليل متزغطه.

- يا نبوي أنا مش عاوزه طيور من السوق، أنا عاوزه طيور نضيفه، إنت عارف العمده ضيوفه تقال، كلهم من الأكابر، مينفعش يتعشوا إلا بأحسن حاجه.

- يا ست حسنات، أنا مش بجيب غير الطير اللي يعجبني، ويكون لسه جاي من الفلاحين، إنما شغل السوق ده مينفعش أجيبه بيت العمده.

- طيب ودول حسابهم كام؟ علشان انت مخدتش حساب البط والوز الأسبوع اللي فات.

- وماله يا ست حسنات اللي عندكم يزيد، أنا كمان النهارده جالي خروفين صغيرين، قلت أخليهم حداي، لغاية ما تؤمري أوديهم للجزار يوضبهم، وأجيبهم لضيوف العمده.

- خلاص يا نبوي النهارده ادبح واحد، وهاته على طول علشان نلحق نسويه، وخلي الخدم يحطوا الرومي والحمام في العشه، بس اعمل حسابك الأسبوع الجاي تجيب عشرين تلاتين ديك برابر، وحمام زغاليل، علشان فيه ضيوف للعمده جايين من مصر.

- تؤمري بحاجه تانيه ياست حسنات؟

- قولّي كده، عاوز كام علشان الخرفان؟

- بسيطه والله، دول ألفين وخمسمية جنيه، شغل الأسبوع اللي فات والأسبوع ده.

- طيب العمده نايم ومفيش معاه نقديه؛ علشان لسه فلوس القصب مجتش، الفلوس اللي ليك دي تساوي قيراطين أرض، استنى حكتب لك بيهم ورقه واختمهم بختم العمده علشان نايم.

- واحنا نطول يا ست حسنات نجاور أرض العمده، ربنا يبارك لك، ربنا يعمر بيتك.

****

بعد أذان العصر يقوم منصور العمدة من نومه العميق، يجد أنور في انتظاره في المضيفة ومعه صندوقان كبيران مغلقان بإحكام، مدون عليهما كلمات باللغة الإنجليزية!

- ما تأَخذْنيش يا معالي العمدة إني جيت من غير معاد.

- لا يا أنورإنت تيجي أي وقت، إيه اللي معاك ده؟

- دي مَيّه يا جناب العمدة، نضيفه قوي تستاهل مزاجك ومزاج ضيوفك، حاجه كده، نص كوبايه تعدل المزاج أسبوع!

- دي شكلها غاليه يا أنور؟!

- ده شغل السوق الحره يا جناب العمده، شغل تهريب مفيش حد شربه في بلدنا قبل كده!

- دول عاملين كام؟!

- دول مع حساب الأسبوع اللي فات يعملوا تلات آلاف جنيه!

- بص أنا الميه النضيفه دي تلزمني، ومفيش فلوس معاي دلوقت، ومينفعش حد في البلد يبقى مداين العمده، أنا حكتب لك كام قيراط من أرضي بدل الفلوس، قلت إيه؟!

- خدامك جناب العمده، اللي تشوفه، حد يطول يجاور أرض العمده، دي بركه منك ياعمده ربنا يخليك لينا وللبلد.

****

تمر أيام وأسابيع وشهور وتلد حسنات ابنها الأخير أبو زيد، وتستمر ولائم العمدة منصور؛ ابتهاجاً بقدوم ابنه أبو زيد.

يستمر نبوي وأنور في توريد اللحوم والطيور والخمور الراقية إلى العمدة، وأصبح حسابهم يزيد أسبوعاً بعد أسبوع!

مع استمرار توريد اللحوم والخمور لشهور طويلة، يقرر العمدة منصور أن يحاسبهم مرة واحدة شهرياً، وأن يعطيهم كل شهر قيراطين من فدادين أرضه الواسعة، على أن تكتفي حسنات كل شهر بما قيمته قيراطين فقط من الأرض.

تثور عليه حسنات وتطالب بمزيد من اللحوم والطيور؛ متعللة بأن الأولاد كبروا، ويحتاجون إلى غذاء طيب بكميات كبيرة، وتحاول أن تجعله يقلع عن شرب الخمور كل ليلة، واستبدال قراريط الخمور بقراريط لحوم وطيور.

****

(٢)

تمر السنون سريعة، وكلٌ منهما على شاكلته، حسنات تعشق الطعام الطيب، والعمدة لا ينام ليلة بدون احتساء بضع كاسات من الخمور الفاخرة، وحلمه في استرداد العمدية من الحوايتة يذبل كل ليلة.

كلما قلت موائد اللحوم والخمور، كلما تقلص وذاب حلمه في استرداد ما أنفقه خلال السنوات الماضية حتى تيقن أن أيام والده العمدة قد ولت بغير رجعة.

****

أحسنت حسنات تربية بناتها وأولادها، فمرتضى تخرج فى كلية الشرطة وأصبح ضابطاً في المركز، وفؤاد في السنة الثالثة بكلية الشرطة، أما البنات فوقية وقدرية فقد تم زواجهما من أبناء عمومتهما، وأنجبتا أحفاد العمدة منصور.

لكن بقي في العنقود نهايته، بطلنا أبو زيد الذي فشل في التعليم وأدخله والده الثانوي التجاري، فحصل بصعوبة بالغة على دبلوم التجارة، ليتمكن بمساعدة والده ومعارفه من أكابر البلد أن يحصل على إعفاء من الخدمة في القوات المسلحة؛ لوجود وحمة بيضاء في وجهه، قد تكون بهاق؟!

أو تمكن والده أن يلصقها بجلده لحين انتهاء الكشف الطبي! هكذا تساءل أهالي القرية وهم يتناولون الأرز واللحم على مائدة والده العمدة منصور.

****

غير مدرك لعدد الأوراق التي كُتبت لكل من نبوي وأنور والتي ختمها جميعاً بختمه، خلال السنوات الماضية، بعد أن أصبح نبوي يُحْضِر للمنزل كل ألوان الطعام، من الجبن والسمن وكل ما يستطيع اقتناصه من الفلاحين في الصباح الباكر، وإيداعه خزائن حسنات، مقابل أوراق تثبت ملكيته لقراريط وقراريط تحولت بفعل الزمن إلى أفدنة.

بعد أن كان أنور مسئول الخمور في أمسيات العمدة منصور، كلفه العمدة بإحضار المزات من الجبن الرومي الفاخر، والزيتون (الكلاماتا) الأسباني، وعمود من البسطرمة الجيدة مقطع إلى شرائح رقيقة، وتتراكم الأوراق المختومة بختم العمدة.

****

بعد أن أعياهما الصبر والتعب على حقهما المهدر لدى العمدة منصور، وبعد أن أرسلا له العديد من أكابر القرية.

يقرر كلٌّ من أنور ونبوي الذهاب لعمدة القرية، ابن عائلة الحوايتة؛ حتى يخبرانه بما في حوزتهم لعدد من أفدنة العمدة منصور، طالبين النصح والإرشاد حتى يتمكنا من إثبات ملكيتهما وحيازتهما لتلك القراريط، التي صارت أفدنة والتى حصلا عليها منذ

سنوات، ولم يتمكن أي منهما أن يخطَو خطوةً داخل أرض العمدة منصور، المزروعة قصباً طوال العام!.

يستدعي العمدة بواسطة الخفراء منصورالملقب أيضاً بالعمدة، وفي حضور نبوي وأنور وبعض أكابر البلدة، يقر منصور بصحة توقيعه على الأوارق، ويعلل بأنها على سبيل الرهن، وكانت ثمنا لطعام الولائم التي يقيمها لأكابر البلد الجالسين بجوار العمدة.

يطلب مهلة لدفع ثمن ما دخل بطونهم من طعام وذهب بعقلهم من خمور خلال السنوات الماضية.

يرفض نبوي وأنور أصحاب اللحوم والخمور استرداد ثمن بضاعتهم نقوداً، متمسكين بما جاء بالأوراق، وأن تلك القراريط المدونة بالأوراق بيع وشراء.

يطلب العمدة منصور الجلوس مع كلّ من أنور ونبوي على انفراد بعد إذن العمدة، محاولاً إثنائهم عن الاستيلاء على أرضه وفضحه في القرية والقرى المجاورة، يجلس معهم في غرفة مجاورة لمجلس العمدة.

- يا نبوي، إنت جاي بعد العمر ده كله تفضحني، علشان شوية طيور وخرفان كنت بتجيبها للست حسنات!

- يا جناب العمدة، أنا وأنور لينا سنين بنجيب لبيتك كل خيرات فلاحين بلادنا والبلاد اللي حوالينا، سمن، طيور، غنم وكل اللي بتطلبه الست حسنات!

- أنا يا نبوي، ما أنكرتش إن ده الختم بتاعي، وإني كتبت الورق ده، بس اصبروا عليّ وأنا حديكم فلوس بدل الأرض.

- لا يا جناب العمده، إحنا خدنا الأرض منك بيع وشرا، ولينا سنين صابرين، وكل ما نسألك تقول الأرض فيها قصب يخص المصنع لمّا نجمعه، نقيس لكم!

- أنا كنت بقول لكم كده، علشان أجمع لكم تمن الأكل والخمره اللي أخدتها منكم، إنما دلوقت عاوزين أرضي وأرض ولادي، ده بُعدكم، لما السما تنطبق على الأرض!

يرد أنور بعد أن أعياه الصمت:

- خلاص يا عمده، البلد فيها عمده بحق، لو معرفش يجيب لنا حقنا، إحنا حنرفع قضيه، ونطالب بحقنا في أرضك!

- ترفع قضيه على العمده منصور، إنت نسيت، أنت وهو أنا مين وأبقى أبو مين، من بكره فؤاد ومرتضى يجروكم على المركز؛ علشان تتعلموا الأدب في الكلام مع العمده.

يخرج من الغرفة غاضباً مستأذناً من العمدة وأكابر البلد، تاركاً نبوي وأنور في حيرة وخوف من تهديده لهما، ليشد أزرهما العمدة الحقيقي، ويقسم لهما أمام الجميع أنه لن يحدث لهما أي مكروه طالما بقي على كرسي العمدية.

****

تستمر محاولات نبوي وأنور في إثبات حقوقهما، تارة بتوثيق أوراق البيع في الشهر العقاري، وتارة برفع قضايا ضد منصور، تطالبه بصحة التوقيع وتسليمه الأرض.

يتحين العمدة منصور فرصة العشاء مع أولاده الثلاثة؛ ليحكي لهم ما حدث من نبوي وأنور أمام العمدة وأكابر البلد.

يُلقي فؤاد ومرتضى اللوم على والدهما، ويخبرانه بعدم قدرتهما على مساعدته، وعدم استطاعتهما خرق القانون، وهما المنوط بهما إعمال الحق والقانون في البلاد.

يثور أبو زيد متسلحاً بحماس الشباب متوعداً أنور ونبوي بضربهما بالنار في أي ليلة مظلمة، يسرع أبوه بإغلاق فمه؛ حتى لا يسمعه أهل القرية وينهره إخوته محذرين أباهم وأخاهم من التسرع في اتخاذ أي إجراء يسبب لهما الضرر والإحراج.

نادماً على روايته ما حدث في مجلس العمدة لأبنائه، ويحذرهم من التدخل، وهو وحده قادر على حل مشكلته التي حلت عليه بسبب ما أكله وشربه خلال السنوات الماضية.

****

بعد انقطاع أنور ونبوي عن جلب المزيد من اللحوم والخمور لبيت منصور العمدة، يستعين منصور بأصدقائه، علهم يساعدونه في كبوته، ولا يجد منهم سوى صامت أو لائم، تزيد جراحه نزفاً، ويعاقر الخمر الرخيص الذي يذهب بالباقي من عقله، ويصيبه ضعف شديد في الإبصار.

يسافر به أبو زيد إلى القاهرة للعلاج الذي لم يستمر سوى أسابيع قليلة، أنفق فيها ما تبقى من بيع فدانين من أرضه، حيث يكتشف الأطباء وجود ورم في الكبد، وتدهور في وظائفه من جراء شربه للخمور لسنوات طويلة.

تذهب باقي أمواله بين أَسِرّة العناية المركزة، والأدوية الباهظة الثمن المستوردة والمهربة من أوربا، التي اقتنع أبناؤه أنها تقضي على الخلايا السرطانية.

****

أيام قليلة، راقدا داخل العناية المركزة في أحد مستشفيات القاهرة الاستثمارية، وفي الأجل الذي حدده الله من قبل، تحضر الملائكة وتقوم بأخذ روحه، بعد أن حان أجله لترك الدنيا، وبعد الغُسل مرات ومرات، يكفن ويسافر جثمانه إلى بلدته.

****

(٣)

وسط أبنائه وأزواج بناته يدفن في الجبانة، ويقام العزاء في الساحة، يجلس أنور ونبوي بجوار بعضهما داخل الساحة، يمر عليهما ابناه الضابطان، محيين ومرددين (شكر الله سعيكم) يواجههما أبو زيد بغضب وحنق ، وأمام الجميع يطلب منهما الخروج من عزاء والده، ولا سبيل على إثنائه من طردهما.

يهما بالخروج، وسط حيرة الكثير من المعزين، يبدأ نتيجة ما فعله أبو زيد فصل جديد في النزاع على أرض العمدة منصور.

****

يخرجان من واجب العزاء مطرودين من أصغر أبنائه، وإن كان خروجهما في هدوء، حتى لا يلحظ باقي أهل البلدة ما فعله فيهما ابنه الصغير، يجلسان سوياً على أحد المقاهي البعيدة.

يتحدث أنور بصوت خفيض:

- وبعدين يا نبوي الراجل اللي مداينينه مات، وابنه فاكر إننا السبب في قهره وموته!

- شوف إحنا لازم نتصرف بسرعه، قبل ما حقنا يضيع، القضايا اللي عملناها كلها حبر على ورق!

- إنت عارف أنا مليش غير فاروق ابني، وده لسه صغير، وعاوز أسيب له الأرض دي بعد ما أموت، عاوزه يتعلم ويدخل الجامعه، بلاش يشتغل في الخمره.

- والله خير ما تفعل يا عم أنور، الخمره دي فلوسها حرام وبلاش فاروق يشتغل فيها، بس مقلتش نعمل إيه في أرضنا؟!

- مفيش حل غير إننا ننزل أرضهم، ونقيس نصيبنا، ونجيب جرار ونحرت أرضنا.

" نبوي مندهشاً من شجاعة وجسارة أنور الذي عاش حياته كلها يخشى أن يغضب منه أهل البلدة؛ لبيعه الخمور لأبنائهم."

- يا بو فاروق، إحنا محدش معانا، لو نزلنا الأرض وهما في الواجب، البلد كلها حتغلطنا!

- ده حقنا، لو سكتنا لغاية الواجب ما يخلص، الأرض حتروح، أكيد ولاده وجواز بناته حيعملوا إعلام وراثه وحتتقسم الأرض عليهم، ده لو فاضل أرض، أنا سامع إنهم باعوا فدانين؛ علشان مصاريف علاجه.

- أنا بس خايف يا بو فاروق، ده ولاده الاتنين ظباط ورتب، حيسيبونا نحرت أرضهم!؟.

- بقولك بدل ما نقعد نتكلم، قوم نعدي على المحامي في البندر، نأجر عربيه، ونبلغه إن العمده منصور اتوفى، ونشوف حيشور علينا بإيه!؟.

- ده كلام مظبوط يا بو فاروق.

****

يخرج أنور مصطحباً نبوي متجهين إلى موقف السيارات، متخذان من إحداهن وسيلة للوصول إلى المدينة بأسرع وقت، وبعد طول انتظار بمكتب المحامي الشهير يحين وقت دخولهما عليه.

يقص أنور ونبوي ما جدَّ في قضيتهما من موت صاحب الأرض، الذي اشتريا منه منذ زمن، ولم يتسلما أو يضعا أيديهما عليها، ليفاجئهما محاميهما:

- القضية بتاعتكم اتحكم فيها من شهرين، وأنا استلمت الحكم ودلوقت التنفيذ بالقوة الجبرية، الأرض خلاص حقكم.

يرد نبوي فرحاً:

يا ترى كل واحد نصيبه كام فدان!؟

- الخبير بعد ما عمل المراجعه وطابق الأختام وأحكام صحة النفاذ، إنت يا حاج نبوي حقك أربع فدادين، أنور ليه ست فدادين وأربع قراريط.

- طب الحمد لله، ربنا يكرمك يا أستاذنا، دلوقت عاوزين نعرف الخطوه الجايه إيه؟!

- شوف يا نبوي إنت وأنور، القضيه بتاعتكم دي خدت مني شغل كتير، والخطوه الجايه دي أهم خطوه، وهي تنفيذ الحكم بالقوة الجبرية.

يرد أنور بقوة: إحنا جاهزين يا أستاذنا.

- لا المسائل دي مش بالأتعاب أنا باخد نسبه، زيّ قضايا التعويضات بالظبط، أنا باخد في التعويضات عشرين في المِيّه.

يرد نبوي متسرعاً: إحنا تحت أمرك، بس نستلم الأرض.

- أنا مش حاجي عليكم، أنا حاخد من نصيب نبوي نص فدان، وأنت يا أنور حاخد منك فدان.

يرد أنور غاضباً: ليه جايّ عليّ كده يا أستاذنا؟! خليني نص فدان زيّ نبوي!

- أنا كلمتي واحده، يا نكتب الورق والعقود دلوقت، يا تاخدوا حكم التنفيذ وتنفذوا بمعرفتكم.

- طيب ممكن تدينا فرصه أنا ونبوي نتشاور؟!

- مفيش مشاوره ولا وقت عندي، فيه موكلين غيركم بره، يا نكتب العقود بفدان ونص يا تاخدوا الحكم وربنا يسهل لكم.

يرد نبوي بحدة على أنور:

- أبو فاروق بلاش تتكلم أنت، خلاص يا أستاذ شوف مين اللي حيكتب الفدان ونص، إحنا جاهزين ومعانا أختامنا.

- توكلنا على الله.

ينادي الأستاذ على أحد المحامين الذين يعملون معه، ويصطحب أنور ونبوي إلى غرفة أخرى؛ لإنهاء كافة الأوراق، ويغادران المدينة عائدين إلى البلدة.

****

لم يطُل انتظار الأستاذ المحامي كثيراً، وقبل انتهاء واجب العزاء وقبل القطعية، التي تتزامن مع اليوم الخامس عشر بعد الوفاة، والساحة مازالت تستقبل المعزين، تنتقل الأخبار سريعا إلى أبنائه، بأن العديد من الأهالي يقومون بحرث أرضهم في حراسة الشرطة.

ينتقل أولاده الضباط تاركين المعزين والمقرئين في الساحة، يتبعهم أبوزيد بعد أن أحضر رشاشاً آلياً معه، لا يستطيع أن يرفعه، وإنما يخفيه تحت ملابسه عند رؤيته لقوات الشرطة.

تمكنت قوات الشرطة من الحفاظ على أرواح نبوي وأنور من بطش أبوزيد وأبناء عمومته، بل وتسليمهما أرضهما كاملة طبقاً لحكم المحكمة!.

****

قبل أن ينتهي اليوم، كان الأستاذ المحامي قد استلم فدانا ونصف من أرض أبناء العمدة منصور، وباعهم إلى أحد كبراء عائلة الحوايتة، ويصبح لهم ملك جديد في قلب أراضي السعدنية.

تشتعل النار في قلوب أبناء السعدنية، بعد أن باع المحامي أرضهم للحوايتة في حادثة لم تشهد لها القرية مثيلاً من قبل.

يحضر الكثير من أعيان السعدنية لشراء الأرض من أنور ونبوي لكنهما يرفضان أن يتركا الأرض التي حصلا عليها بعد سنوات من الشقاء في المحاكم.

يزداد غضب عائلة السعدنية على أبناء العمدة منصور، الذي لم يتبق لهم الكثير من الأراضى بعد أن بدّدَ والدهم الكثير والكثير على ملذاته، وأدخل الغرباء إلى أراضيهم.

****

(٤)

تعتزم الحكومة إنشاء مصنع للسكر على أطراف البلدة، وإقامة خط سكة حديد، لنقل القصب من الحقول، بدلا من نقله إلى المصنع القديم، الذي يبعد كثيراً عن بلدتنا، ومع توارد أخبار عن إقامة المصنع على أرض السعدنية.

يتحرك كل من يمتلك أرضاً في تلك المنطقة؛ انتظاراً لقرار الحكومة في إنشاء الطريق المؤدي إلى المصنع.

فمن تقع أرضه على الطريق فقد فاز، وفازت أرضه بخطوط الكهرباء والمياه العمومية، ودخلت أرضه كردون المباني، وارتفع سعر الأرض أضعاف أضعاف الأرض الزراعية.

****

تم نزع ملكية عشرات الأفدنة من أراضي السعدنية، لإنشاء مصنع السكر، وأخذ مصنع السكر ما تبقى من أرض العمدة منصور، ولم يتبق لهم سوى بضعة أفدنة.

لكن الطريق المؤدي للمصنع، حدوده الجديدة كانت أرض نبوي وأنور، التي أصبحت يحدها الطريق العمومى والأسفلت، وأصبحت أرضهما تباع بالمتر، وإن ظل كلٌّ منهما على عهده القديم يرفض التفريط في أي شبر من أرضه.

****

أشعلت الأخبار الجديدة النار في صدر (أبو زيد)، فتلك الأراضي كانت لهم، ولولا أن رفض نبوي وشريكه أخذ ثمن اللحوم والطيور، وتسبب رفضهما في فضيحة أبيه ومرضه وموته.

تجدد الغيظ القديم، وأشعل الحقد قلب (أبو زيد) ليقرر استرداد أرض والده دون استشارة إخوته الضباط، الذي يعلم مسبقاً أنهم يرفضون أسلوبه في حل المشاكل، لكنه يستطيع إقناع الجميع بأنه يتحدث بلسانهم.

قبل صلاة العشاء يتجه أبوزيد بسلاحه الآلي إلى الجامع الكبير، الذي نادرا ما يزوره حتى في أيام الجُمَع.

ينتظر إقامة الصلاة مع عدد من أصدقائه من عائلة السعدنية وآخرين، ليثيروا الدهشة والتعجب عند رؤيتهم بالجامع.

عند الانتهاء من الصلاة وبعد أن يسلم الإمام، وقبل أن يبدأ بالدعاء والاستغفار، ينهض أبوزيد واضعاً سلاحه بين قدميه مخاطباً الجَمْع، بأن هناك منكراً داخل بلدتنا ينبغي علينا إصلاحه كما أمرنا نبينا الكريم.

يستمر أبوزيد وأصدقاؤه في التحريض على طرد أنور من البلدة، ويلتف حولهم كثيرون من المتشددين، بعد أن راقت لهم فكرة القضاء على الفواحش والمنكرات في البلدة، ولتكن البداية من أنور تاجر الخمور، الذي أحال بيته إلى مخزن للخمور، مستتراً في دكانه الصغير.

نجح أبوزيد في حشد العديد من الشباب، بعضهم متشدد ومؤمن بأن أنور فاسق لا يجوز له العيش بينهم، وبعضهم بحكم نسبه لعائلة السعدنية فهو يساعد ابن عمه (أبو زيد) في طرد المعتدي على أرضه، والكثيرون ينتظرون الساعة التي يهاجمون فيها مخازن الخمور، علهم يتمكنون من الحصول على بعض زجاجات الخمر المعتقة، تنفعهم في ليالى الشتاء القادمة بقوة.

****

قبل صلاة الفجر، في ليلة شتوية، يتجمع العشرات ممن خدعتهم دعوى قائدهم أبو زيد شقيق الضباط للقضاء على المنكر، وآخرون كلٌّ منهم نيته ما زالت كامنة داخل صدره.

ذاهبين إلى منزل أنور، محطمين أبواب مخازنه داخل المنزل سارقين، ناهبين ، ثم مشعلين النار في الخمور.

يهرب أنور وابنه فاروق وزوجته، بعد أن التهمت النيران البيت ومخازن الخمور التي زادت من اشتعال النار وتأججها.

لم يجد أبو فاروق سبيلاً إلى إعادة تجارته مرة أخرى، أو بيع أرضه بعد أن قام أبو زيد وأتباعه بإقامة خيام وأحضروا أسرهم، مشكلين سواتر بشرية ضد أنور، أومن يستعين به لدخول أرضه.

****

استمرت الضغوط على أنور، والتهديد بخطف ابنه الوحيد وقتله، ليقرر الخروج من البلدة نهائياً، بعد أن أجبره أبو زيد على التنازل عن أرضه مقابل مبالغ زهيدة جمعها أبو زيد من إخوته وأولاد عمومته.

مثلما حضر أنور منذ سنوات بائعاً للجبن والزيت في دكان صغير، غادرها اليوم دون جبن أو زيت تصحبه زوجته وابنه، ولعنات أهل البلدة جميعا.

****

(٥)

استقر الحال وبات أبو زيد بطلاً في عيون أشقائه وأبناء عمومته، بعد أن استرد أرض أبيه وحرثها وأزال كل أثر لأنور من الأرض ومن البلدة، تلك الأفدنة المتاخمة لطريق مصنع السكر والتي تباع بالمتر.

أصبح أبو زيد وإخوته بين ليلة وضحاها من أصحاب الملايين، وتدور رأس أبو زيد بعد أن التف حوله شباب عائلته وشباب القرية، وبات أبو زيد صاحب كلمة وشأن في القرية، وينتوي أن يعيد أمجاد السعدنية ويعيد لهم كرسي العمدية.

****

هيهات هيهات، يتذكر أن نبوي لا زال مغتصباً ثلاثة أفدنة ونصف من أرضه، تمكنت الحيرة من عقل (أبو زيد) في أمر نبوي، كيف الوصول إلى وسيلة لاسترداد أرض السعدنية منه؟

تاجر الطيور نحيل الجسم الذي حضر إلى قريتنا من عدة عقود، لا يمتلك دكاناً، يشتري الطيور من فلاحي القرى المجاورة يوم السوق، ليسرح بها داخل قريتنا بقفص من الجريد، يحمله فوق رأسه مناديا حول البيوت، راجيا من الله أن تباع طيوره قبل أن تنفق في شهور الصيف الحارة.

بسبب أمه الست حسنات والمرحوم أبوه، بات نبوي من أغنى الأغنياء، ويمتلك أرضا على طريق المصنع يقدر ثمنها بالملايين.

بعد صلاة العصر يخرج أبو زيد من الجامع مع جمع من مريديه، ذاهبين إلى نبوي في منزله، بعد الطرق على باب منزله وخروجه على عَجَل بجلباب قصير!

يتحدث أبو زيد بخشونة واضحة:

- سلام عليكم يا حاج نبوي.

- عليكم السلام ورحمة الله، اتفضلوا، يامرحبا!

- شوف يا حاج نبوي، إنت خدت من أبويا أربع فدادين بالباطل وعملت ورق وختّمت أبويا عليه!

- إزاي يا بو زيد، الموضوع ده ليه سنين وقعد في المحاكم زمن والقضية اتحكم فيها بالقانون، ونفذنا واستلمنا الأرض.

- نفذت وجبت الجرار، واشتغلت حرت في الأرض، وواجب أبويا لسه مخلصش، البلد كلها عارفه الغلط اللي عملته.

- يا بني، أنا نفذت بالقانون.

- أنا مش ابنك، الأرض دي بتاعتنا، أبويا اشترى منك طيور وخرفان تاخد تمنهم وتتنازل عن الأرض!

- لا يا بو زيد أنا مش حتنازل عن أرضي ولا حبيعها، ولادي صغيرين، أنا حزرع الأرض وأبني بيت جواها؛ علشان أسيب حاجه لولادي.

- مش حيحصل يا نبوي، وحتبيع الأرض بالسعر اللي اشترى بيه أبويا الطيور، سلام عليكم.

يتركه أبو زيد وأتباعه في حيرة من أمره، وتحذره زوجته من غدر أهل البلدة به، وتذكره بما آل إليه حال صديقه أنور.

يطمئنها والخوف يتملكه، بأن البلاد فيها قانون، ويعدها بأن كل الأمور سوف تستقر، يدخل على ابنيه الصغيرين الذين تجاوز عمرهما الثامنة بقليل، يحتضنهما بشدة التوأمين أبوالحسن وأبوالمجد اللذين رزقه الله بهما بعد العديد من المحاولات والعمليات الجراحية.

****

مع ثبات نبوي أمام غطرسة أبو زيد وأعوانه، وعدم امتثاله لتهديدات أبو زيد ولجوئه إلى عمدة البلدة وعائلة الحوايتة؛ لحمايته من بطش السعدنية.

يخذله العمدة ويساومه لبيع أرضه لعائلته، وهم أجدر بالوقوف أمام بطش (أبوزيد) وأتباعه، لكن نبوي يرفض التفريط في أرضه متسلحاً بالقانون، متمسكاً بحلمه في ترك أرضه لأولاده أبو الحسن وأبو المجد.

****

أبو زيد أعياه التفكير في أسلوب جديد يتبعه لإجبار نبوي على بيع أرضه، في إحدى الليالي، ومع دخان الحشيش الذي يحضره أصدقاؤه للسهر يومياً في بيت العمدة المنتظر، ينفض الجمع ولا يبقى قبل أذان الفجر غير صديقه قرشي، في مثل سنه في بدايات ثلاثينيات العمر، شاب مفتول العضلات، قاسي الملامح، مدخن شره للسجائر والمخدرات، ترك له أبوه إرثا أضاعه في المخدرات والسهرات مع بنات البندر!.

- إيه يا بو زيد، مفيش أخبار عن نبوي اللي واكل أرض أبوك؟!

- لا مردش عليّ من يوم ما رحنا عنده بيته وهددناه، هو مش خايف مننا، عارف إننا مفيش في إيدنا حاجه نعملها!

- طب إيه رأيك، أنا عارف إزاى نجيب أرض أبوك ونرجع لك حقك!

- طب وساكت ليه، انطق يا قرشي علشان نرتاح وأحلي لك بقك.

- أنا بس عاوز أعرف هما كام فدان؟

- نبوي يحتكم على تلات فدادين ونص كلهم على الطريق (يعني كردون مباني)، يتباعو النهارده بالمتر!

- شوف يا بو زيد حتديني كام وأنا أخلص لك المشوار ده.

- أديلك اللي عاوزه، بس قول لي حتعمل إيه؟!

- أنا عاوز فدان، وحلال عليك بقية الأرض.

- فدان يا واكل ناسك، كتير يا قرشي، دي أرض مباني!.

- خلاص خلي نبوي يبيع بكره بعد ما هددته، وتروح عليك أرضك.

- إزاي يبيع، هو قال: الأرض لعيالي !

- لو الحوايته كلموه، حيبيع نص الأرض ليهم، كده حيضمن حمايتهم ليه، ومفيش حد في البلد حيقدر يقف قصاد الحوايته.

- يا واكل ناسك قول حتعمل إيه قبل ما شق خلقاتي؟!

- إديني كلمه في الفدان، وأنا أنفذ معاك.

- تمام يا قرشي، أديك فدان بس مش على الطريق.

- لا ،لازم فدان ليه مدخل على الطريق، أمال حبيعه أزاى!

- خلاص يا قرشي اللي أنت عاوزه حتاخده، بس قول حنعمل إيه.

- شوف يا بو زيد، أنا فاضل عندي حتة أرض في نواحي البلد، الأرض دي مش مزروعه؛ علشان أرضها مالحه.

- مالها الأرض دي حنبدل بيها أرض نبوي.

-لا بقولك أرض مش مزروعه، ودي كلها فدان ونص مالهاش سعر!

- أمال إيه يا قرشى، أشق خلقاتي وترتاح!.

- نبوي عنده عيلين بيروحوا المدرسه وحدهم كل يوم، العيال صغيره نخطفهم في شوالين، وأخبيهم في الأرض بتاعتي، لغاية ما نبوي يمضي لك بيع وشرا.

- الله عليك يا قرشي، إزاي أنا مافكرتش في كده؟!

- توكلنا على الله قوم قبل النهار مايطلع نستخبى في طريق المدرسه، وأنا حوصل البيت أجيب شوالين غله نحط فيهم العيال.

****

(٦)

ينجح قرشي وأبو زيد في اختطاف (أبو المجد وأبو الحسن)، بعيداً عن أعين أهل البلد يتركونهما مربوطين من أيديهما وأرجلهما، مكممة أفواههما داخل خيمة في أرض قرشي البعيدة، ليحضر قرشي بحماره مرتين يومياً؛ للاطمئنان عليهما وإحضار طعام لهما.

****

تمر أيام ونبوي لا يترك أثراً في البلدة إلا ويبحث فيه عن أطفاله، يذهب إلى البندر يحرر محضراً باختفاء أطفاله، دون اتهام أحد باختطافهم؛ خشية من انتقام أبوزيد وإخوته!

تفشل جهود البحث عن الأطفال مع ادعاء بعض الأهالي أن طفليه لم يذهبا للمدرسة، وذهبا للنهر لتعلم السباحة وغرقا هناك، يظل نبوي حائرا بين المصارف والترع يسأل الصيادين، ربما وجدوا جثامين أطفاله!.

يتركه أبو زيد أسبوعاً كاملاً ليزيد من آلامه متشفياً في عذابه، مضعفاً مقاومته؛ حتى يقبل التنازل عن أرضه مقابل طفليه.

****

في الأرض البعيدة، وعلى أطراف القرية يلحظ أحد جيران قرشي تردده على الخيمة يومياً، وهو المهمل لأرضه منذ سنوات ومعروف عنه عدم اهتمامه بالأرض أو التردد عليها.

يثور فضول الجار، الذي انتظر خروجه من الخيمة وركوبه حماره، ليذهب إلى الخيمة عله يجد ما يشبع فضوله!.

يجد طفلين مكممين ومربوطين من أرجلهما وأيديهما وحلوقهما جافة وعيونهما كئوس دم من كثرة البكاء والخوف!

يسرع بفكهما وإعطائهما ماءً يشربانه من إناء تركه قرشي بجوارهما، يعلم منهما أنهما ابنا نبوي تاجر الطيور، ليأخذهما إليه ويقصا عليه ماحدث لهم.

****

يتم القبض على قرشي و(أبو زيد) يتم مواجهتهما بالطفلين، يعترف قرشي ويحكي ماحدث بينه وبين أبو زيد، ذلك الاتفاق الشيطاني الذي تم بينهما بعد شرب الحشيش وخروجهما بعد الفجر، وانتظار الأطفال، وخطفهما قبل الوصول إلى المدرسة.

فشلت جهود إخوته وأبناء عائلته في إقناع نبوي بالتنازل عن اتهامه للعمدة المنتظر، وكاد نبوي تحت الضغط أن يتنازل ويحصل على مبلغ كبير من السعدنية على سبيل التعويض، إلا أنه تراجع بعد ضغوط الحوايتة والعمدة.

يتم إحالة (أبو زيد) وقرشي إلى محكمة الجنايات مكبلين بأصفاد حديدية، شهور قضاها أبو زيد في السجن، ينتظر محاكمته أمام محكمة الجنايات، والمحاكمة الأكبر أمام نظرات أخوانه الضابطين أصحاب الرتب الكبيرة، والذي جلب لهما ولأبنائهما الخزي والعار لعقود قادمة.

يقف أبو زيد بملابس بيضاء في القفص الحديدي يسمع القاضي يناديه باسمه:

- أبو زيد منصور سعد.

- تمام يا سيادة المستشار.

- أنت اشتركت مع قرشي في خطف الطفلين أبو الحسن وأبو المجد نبوي؟

- محصلش ومعرفش حاجه عن خطف الأطفال دى!

- طيب، أنكر أبوزيد التهم الموجهة إليه، النيابة ليها طلبات؟

ينهض أحد أعضاء النيابة العامة ببدلة بنية اللون، أسفلها قميص أبيض وكرافتة داكنة الحمرة، يرتدى وشاح أحمر اللون، يصول ويجول في تفنيد الجريمة التي ارتكبها قرشي بإيعاز ومعاونة (أبوزيد) قائلا:

- أطلب من الهيئة الموقرة تطبيق نص المادة ٢٩٠ من قانون العقوبات:

" كل من خطف بالتحايل أو الإكراه شخصا، يعاقب بالسجن المشدد مدة لا تقل عن عشر سنين، فإذا كان الخطف مصحوبا بطلب فدية تكون العقوبة السجن المشدد لمدة لا تقل عن خمسة عشره سنة ولا تزيد عن عشرين سنة، أما إذا كان المخطوف طفلا أو أنثى، فتكون العقوبة السجن المؤبد ".

وإعمالا لقول الله تعالى" بسم الله الرحمن الرحيم"

" إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ".

يصدر الحكم العادل، ويُرَحّل قرشي وأبو زيد إلى السجن العمومي، بإحدى المحافظات القريبة.

****

تمر السنون على أبو زيد بطيئة، يمرض داخل السجن، وبمعاونة إخوته يستطيع الحصول على إفراج صحي، ليعود للبلدة مصاباً بالفشل الكلوي، وبين رحلات الغسيل الكلوي بأحد المستشفيات البعيدة عن القرية، لا يتحمل أبو زيد وجسده المرهق من ارتفاع نسب البولينا في الدم.

مع تكرار الغسيل الكلوي ثلاث مرات أسبوعياً، ونقل الدم مرات ومرات وإصابته بمضاعفات الفشل الكلوي، ليفارق أبو زيد الحياة تاركاً أرض والده يتمتع بها أبو الحسن وأبو المجد أبناء نبوي!

****

تُفْتَح أبواب الساحة على مصراعيها، وتقف سيارات الشرطة أمام أبواب الساحة، شقيقاه الضابطان من كبار الرتب، يتلقيان العزاء في شقيقهما في حضور كبار المقرئين من المدينة، وكبار عائلات القرى المجاورة، ولا تجد مقعدا خالياً في الساحة نهاراً أو ليلاً، حتى ختام اليوم الثالث، وتضاف حكاية جديدة إلى حكايات الساحة.

****

تحت الكوبري

(١)

سنية البنت السمراء، توفت أمها بعد ولادتها بأسابيع قليلة، عاشت الصغيرة مع زوجة أبيها، تخدم في المنزل الكبير والذي تتبعه زريبة كبيرة، بها مختلف الحيوانات من الغنم والماعز، مع وجود جاموسة، تظل سنية تخدم تحتها لساعات طويلة يومياً.

تبدأ يومها في الصباح الباكر، بحلب الجاموسة، طبقاً لتعليمات زوجة الأب تضع اللبن في (ماجور فخار كبير)، مغطى بشاش أبيض نظيف، تاركة اللبن في مكان دافئ ولامانع أن يكون تحت أحد الأسِرّة ذات الأعمدة النحاسية العالية.

بعد يوم جديد، تبدأ سنية في كشط اللبن؛ لاستخدامه في إعداد الزبدة، وبعد الانتهاء من فصل القشطة عن اللبن، تبدأ في خض القشطة المحملة باللبن بأداة خشبية أقرب إلى العصا؛ حتى يتم فصل الزبدة عن الشِرْش، والذي يستخدم بعد ذلك مع المش والجبنة القديمة.

تعود إلى اللبن لتجده قد أصبح رُوبه، تضيف إليه الملح وُيتْرَك يوما أو أكثر، ثم يتم وضعه في حصيرة نظيفة ويعلق في المطبخ لمدة ساعات أو يوم، ثم يُعَدّ؛ ليكون قوالب الجبنة الخضراء (القريش).

لا تنتهي مشقة الحلب أو إعداد الزبدة والجبن والمِشّ إلا بعد أن يتم عِشَار الجاموسة، لترتاح سنية لشهور، ونجدها أمام الفرن

وحولها أعواد الحطب والوقيد؛ لإحماء الفرن وجمع العيش الشمسي بعد أن اكتمل اختماره على أشعة الشمس المباشرة، ثم نظافة الفرن والاستعداد لخبز العيش أمام نار الفرن المستعرة.

****

لا تملّ زوجة الأب عن تشغيل سنية بالمنزل حتى بعد صلاة العشاء كل ليلة، لتنام مرهقة مهمومة، وتصحو بعد أذان الفجر وتتكرر الأعمال الشاقة من النظافة والحلب وجمع الجِلّة ثم الخبيز أو طحن القمح..أعمال.. أعمال حتى أذان العشاء.

سنية لم تتجاوز الثانية عشر من عمرها، لم تسمح لها زوجة أبيها بفرصة التعليم، واكتفت بخمس سنوات في المرحلة الابتدائية لتترك المدرسة وخلعت الثياب البنية اللون التي تميز بنات مدرستها، لترتدي جلاليب زوجة أبيها القديمة بعد أن قامت زوجة الأب بإعادة حياكتها؛ ليدخل فيها جسد سنية الصغير.

****

تجرأت في أحد الأيام وتذمرت، فكان لشبشب زوجة الأب رأي آخر مع بعض اللكمات وقَرْص الجلد المؤلم والتهديد بكيّها بالنار، لم تشبع زوجة الأب من ضربها أو تهدأ عنها، وتنتظر حضور الأب؛ ليكمل الضرب والرفس بالقدمين حتى أدمى أنفها الصغير، وغابت عن الوعى!

****

اعتاد الأب أن يغيب لساعات طويلة في الغيطان بين الزرع والنظافة والريّ، وفي نهاية اليوم يجمع البرسيم وأعواد الذرة اللينة؛ لغذاء الجاموسة وباقي البهائم.

****

في أيام الصيف الحارة، التي يغيب فيها الأب طوال اليوم في الغيط، يحضر إلى بيتهم عم (قشر) وهو رجل في الأربعينيات من العمر، تَدّعِي زوجة الأب أنه أخوها في الرضاعة وابن خالها من قرية بجوار قريتنا.

عند حضور عم (قشر) يتم إرسال سنية إلى الطاحونة؛ لطحن الذرة أو الغلة لتغيب بالساعات عن المنزل، يدخل قشر إلى المنزل وقد أحضر علبة حلاوة أعطاها لسنية لتنهره زوجة الأب لإحضاره هدية لسنيه!

- مينفعش يا خويا كل مرة تجيب لها حلاوة، دي بت مش كويسه مش بتسمع كلامي.

- معلهش البت يتيمه، اسمعي الكلام ياسنيه؛ علشان مزعلش منك!

ترد سنية وهي خائفة من زوجة الأب:

- حاضر يا خالي.. مش حعمل حاجه تزعلك تاني.

تحضر زوجة الأب شوالا مملوء لمنتصفه بالغلة وتعطيه لسنية مهددة متوعدة!

- تروحي الطاحونه تطحني الغله، لو الطاحونه قافله تستني قدامها.. مترجعيش وإيدك فاضيه، أنا مش عاوزه أشوفك إلا بعد ساعتين!.

- حاضر.. حرجع بعد أذان العصر!

- أيوه كده..يالا امشي.

تذهب سنية إلى الطاحونة؛ لتضع الغلة هناك، وتذهب لتلعب مع البنات صديقاتها من أيام المدرسة، خاصة صديقتها المقربة صفية، تلعب معها وتستمتع بالوقت، خاصة وأنها تعلم بأن لديها متفسحا من الوقت، وأنها لوعادت قبل الساعتين لوجدت شبشب زوجة الأب في انتظارها بدون سبب.

عند عودتها يكون (قشر) قد غادر المنزل، وفي حرارة الصيف نجد زوجة الأب تخرج لتوها من الحمام لتنشيف شعرها.

****

إحدى الليالي الصيفية، يحضر عم قشر لمقابلة والدها في المنزل، وبعد العشاء وشرب الشاي الذي تحضره سنية، بعد أن أعدته زوجة الأب، يبادر قشر بالحديث إلى أبيها:

- إنت عاوزني أجيلك امتى بالدّرّاسه والجرار؟

- أنا ضمّيت القمح كله، وخايف يِخِسّ في الغيط مع العصافير والحمام!

- الحمام والعصافير سهله، المصيبه في حكاية الحراميه اللي بتنزل الغيطان بعربيات غريبه تحمّل الغله وتسافر بيها!

- أنا سمعت الحكايه دي، إنه كذا غيط اتسرقت الغلة منه قبل ما تدرس!

- إنت تطلع معاي دلوقت، أنا ححط جاز في الجرار وأربط فيه الدراسه، وأنت تاخد غطا وتبيت في الغيط جنب الغله بتاعتك.

- خلاص توكلنا على الله، حرام تعب السنه كلها يروح.. ليله وتنقضى، بس متتأخرش عليّ، لو طلعت الشمس مش حنعرف نتلم على الغلة من الهوا.

- أنا حجيب معاي الشوالات اللي تلم فيها الغله، التبن خليه في الغيط نلمه براحتنا للبهايم.

- بارك الله فيك يا قشر، توكلنا على الله.

****

بعد الاتفاق مع قشر على أن يحضر بعد صلاة الفجر بالجرار والدراسة لدرس الغلة، وعلى الأب أن يبيت ليلته في الغيط، لحراسة القمح من سطو اللصوص، الذين تمكنوا من سرقة العديد من الفلاحين خلال الأسابيع الماضية.

انطلت الحيلة على الأب المسكين وبات ليلته الشتوية متلفحا بغطاء قديم، في سكون الليل وهو نائم وسط أعواد القمح المضمومة، يمر جرار قشر فوق الأب الراقد فوق القمح خوفا من

سرقته، ليسرق قشر حياته تحت عجلات جراره، ويمزقه بدم بارد ويصرخ مناديا أهل القرية فقد نام الأب فوق القمح، ومع الليل العتيم لم يتبين قشر أنه سرق روحه.

****

(٢)

مرت أيام الحداد سريعا، وأصبح وجود قشر في البيت أكثر من وجود الأب قبل موته، تنبهت زوجة الأب أن سنية قد كبرت، وأن خراط البنات قد قام بواجبه وأحسن خرطها، وبرز لها نهدان وأرداف ناضجة وشهية، جعلت قشر يلاحظهم أثناء تحضيرها الماء الدافئ؛ لغسل يديه بعد الغداء.

تقرر زوجة الأب التخلص منها، بعد أن نجحت في التخلص من الزوج، وإن كانت تستفيد من وجودها في أعمال البيت، وحلب الجاموسة وحمية الفرن والخبيز، لكن وجودها أصبح خطراً على استقرار أخيها في الرضاعة بالمنزل، والتي تمنت أن يمضي الليل بطوله بجانبها.

****

تذهب زوجة الأب إلى عائلة الشيخ محمد، وهو شاب في الثلاثينيات من عمره، يناديه أهل القرية بالشيخ محمد، حيث أنه معاق ذهنيا وإن كان غير مُؤْذٍ لنفسه أو أسرته، وكثيرا ما يطلق عليه من أطفال القرية الشيخ محمد البركة، تختلي بأم هاشم المرأة الطاعنة في السن، والتي بالرغم من مضي السنين عليها لا زالت تحتفظ بصحتها وقسوتها.

- والله يام هاشم أنا مقصره معاكي، من يوم الوفاه وأنا مبطلعش، يمكن دي أول مره أطلع فيها!

- خطوه عزيزه ياحبيبتي!

- أنا جايه لك في حاجه كويسه، إن شاء الله نتوفق فيها مع بعض!

- خير ياحبيبتي؟!

- البت سنيه بنت المرحوم جوزي كبرت، والبت غلبانه ويتيمه، وأنا علمتها كل حاجه، خبيز عجين حلب البهايم شغل البيت، كل حاجه!

- طب والله كتر خيرك، أنا دخلي إيه مع سنيه؟!

- أنا بصراحه كده عاوزه أجوزها للشيخ محمد، تاخد بالها منه وتنفعك في خدمة البيت!

- أنا مفكرتش إني أجوزه؛ علشان ظروفه، لكن إنتي واثقه إن البت حترضى؟!

- ملكيش دعوه بالبت، إنتي بس هاتي واحد يبني أوضه فوق السطح جنب الفرن، وسرير ودولاب وأنا حجيب لها جهازها كله.

- طب والبت حترضى تخش من غير شبكه ولا مهر؟!

- دي بت غلبانه يتيمه، هي تطول تبقى في بيتك وتحت طوعك!

- طيب سبيني يومين أشاور أخواته الكبار وأرد عليكي!.

- ماشي يا خالتي، أنا حبتدي أجهز البت للجواز، أنا عارفه إن الحكايه دي مقضيه بإذن الله!.

****

بعد مرور أسبوع على حديثها مع أم هاشم، تعود إليها مرة أخرى معددة مزايا سنية في إجادة حلب الجاموسة، ورعاية الطيور، والعجين، والخبيز، وكل أعمال البيت، إنها فرصة وزيجة مجانية، فالمطلوب فقط غرفة وسرير ودولاب، الشيخ محمد غير مجبر على إحضار شبكة أو دفع مهر لسنية.

بعد إلحاحها على إتمام الزيجة، وضجر أم هاشم منها، تستشير أم هاشم أبناءها وكذلك فتوحه ومحاسن زوجات أبنائها، تتم الموافقة على العرض المقدم من زوجة الأب المتوفي تحت عجلات الجرار.

داخل منزل أم هاشم، يتم عقد قران البركة محمد على سنية، التي تسعد بالخروج من براثن زوجة الأب، وأذيتها لها التي زادت بعد وفاة أبيها، وخوفها من نظرات عم قشر إلى صدرها أثناء غسيل يديه.

(٣)

تأنس سنية للشيخ محمد والذي يتميز بالطيبة الفطرية، لا يعمل في الغيطان مثل بقية إخوته، يصحو في الصباح مبكراً للإفطار مع أمه وزوجات إخوته.

يصعد إلى غرفته فوق السطوح لمباشرة زوجته مرات ومرات طوال اليوم، ثم يحكي لأمه وزوجات إخوته ما يفعله مع سنية يومياً، مع ضحكاتهن وفرحتهن به، تقترح عليه زوجات إخوته أوضاعا جديدة ليمارسها مع سنية، وتستمر الضحكات على الشيخ محمد الذي يحلو له أن يحكي لهن كل كبيرة وصغيرة في حياته مع سنية.

****

تستمر الحياة مع سنية بعد أن أخرجتها زوجة الأب من بيت أبيها لتطيب لها الأيام مع قشر، الذي يدّعي أنه أخوها في الرضاعة، فتارة يهرب من زوجته وأولاده، ليمضي يومين في بيت أخته، وبعد عودته إلى بيته لا يستطيع ترك أخته وحدها، ولكنه يمر عليها يومياً؛ ليلبي طلباتها وكذلك طلباته!

تمضي الشهورعلى سنية، بين سذاجة وطيبة البركة الشيخ محمد، وقسوة أم هاشم وفتوحه ومحاسن عليها، فتمضي الساعات أمام الفرن بين نار الوقيد وعشرات الأرغفة الشمسية.

يبكي الشيخ محمد طلبا لها، ولا تسمح أم هاشم لها بالخلوة مع زوجها إلا بعد انتهاء أعمال البيت الشاقة، حين يشتد بكاء الشيخ محمد طلباً لزوجته، تتركها له لبرهة بسيطة، ثم تعود بسرعة بعد انتهاء الشيخ محمد من وجبته المفضلة، تعاود الجلوس أمام الفرن أو إعداد الجبن والسمن والنظافة تحت البهائم.

****

ينجح الشيخ محمد في إنبات رحم سنية بطفل، في الشهور الأولى من الحمل تتخذ سنية إجراءات جديدة، حفاظا على حملها تتمثل في تقليل وجبات الشيخ محمد النهم دائماً الراغب طوال اليوم وجزء من الليل في وجبته المفضلة.

وإن كانت أم هاشم وسلفاتها فتوحه ومحاسن يتركن الأعمال الشاقة لها وحدها، مكتفيتان بنظافة البيت من الداخل وإعداد الطعام بالمطبخ!.

الأعمال الشاقة مثل العجين والخبيز أمام الفرن، والنظافة تحت البهائم، فتلك أعمال مكلفة بها سنية من يوم حضورها إلى منزلهم وإلى أن يحضر أجلها.

تمضي الشهور على سنية وجنينها، الذي تجاوز عمره الشهر الرابع داخل رحمها، لا يعكر صفو هدوئه سوى زيارات الشيخ محمد التي لا تنقطع.

****

تحضر وصيفة وهي (جارة سنية) وفي مثل عمرها، كانت أيام الطفولة تلعب معها أثناء ذهابها للطاحونة لإخلاء البيت لزوجة الأب مع قشر.

كانت وصيفة تخفف عن سنية كثيرا من قسوة زوجة الأب، ثم عاودت الكرّة وأصبحت تواسيها، وتهدئ من روعها؛ لتتحمل قسوة أم هاشم وسلفتاها فتوحه ومحاسن.

تحكي وصيفة لصديقتها: أن زوجها قام بدعوة ضيوف على العشاء، راجية أن تقوم بإعارتها أنبوبة بوتجاز، وذلك لحين إحضار أنبوبة جديدة من مخزن الأنابيب لتستكمل بها سلق اللحوم وإعداد الطعام لزوجها وضيوفه، بعد أن دعاهم للعشاء بمنزله، ويبدو أنهم تحدثوا معه بخصوص زواج أخته لابنهم.

- أنا مش عارفه أقولك إيه يا وصيفه؟! إنتي عارفه أنا مليش كلمه في البيت ده!

- يا سنيه أنا مليش غيرك، وإنتي عارفه أم هاشم مش حتديني أنبوبه لو اتعلقت في السما!

- أنا خايفه أقولك خدي الأنبوبه اللي تحت السلم دي، هي مليانه بس أم هاشم بتخليها احتياطي لو أنبوبه المطبخ فضيت!

- أنا لو جوزي موجود كان راح المخزن جاب أنبوبه، بس هو مش حيرجع غير بعد المغرب حيكون المخزن قفل.

- طب وحتعملي إيه في الناس اللي جايه تتعشى دى؟!

- أنا حاخد الأنبوبه اللي تحت السلم دي، وبكره قبل الضهر حجيب لك واحده من المخزن مقفوله، بس يعدي اليوم ده على خير، واتستر مع الناس الغريبه.

- طب خديها بالراحه من غير ماحد يحس، أم هاشم نايمه وجوز العقارب في أوضهم!

ترفع وصيفة الغطاء عن أنبوبة البوتجاز المملوءة بجوار السلم، تسمح سنية لوصيفة برفع أنبوبة البوتجاز على كتفها، بشرط أن تعيدها بعد انتهاء زيارة ضيوف زوجها، واستبدالها بأنبوبة جديدة.

****

تخرج وصيفة على عجل للانتهاء من إعداد الطعام لضيوف زوجها، فتسمع فتوحه من غرفتها صوت وصيفة لتخرج متسائلة عما يحدث.

- سنيه.. ده صوت البت وصيفه؟!

- أيوه وصيفه، كانت هنا عاوزه مني حاجه ومشيت.

- أيوه.. عاوزه إيه منك؟!

- كانت عاوزه أنبوبة بوتجاز، الأنبوبه عندها فضيت، وجوزها جايب ناس غريبه على العشا.

- إوعي تكوني إدتيها الأنبوبه اللي تحت السلم!

- أيوه خدتها، بس جوزها الصبح حيجيب مكانها من المخزن!

- إزاى تعملي كده إنتي اجننتي، علشان تطلعي الأنبوبه من البيت من غير إذن أم هاشم!

تنهر فتوحه سنية بسبب خروج أنبوبة البوتجاز بدون علم أم هاشم، تحضر محاسن من غرفتها مع ارتفاع صوت فتوحه، لتقرر كلا منهما أن تذهب سنية لمنزل وصيفة واسترداد أنبوبة البوتجاز مرة أخرى، قبل أن تصحو أم هاشم من غفوتها.

****

ترفض سنية الخروج من البيت، معلنة عصيانها معللة ذلك بأن لها في البيت مثلهما تماما، وأنها حبلى في الشهر الرابع، ولا تستطيع حمل أنبوبة بوتجاز.

يستشيط غضب فتوحه ومحاسن وتستعر نار الغيرة، وتبدآن في ضربها، لمقارنة نفسها بهما ومعايرتها بأنها دون عائلة، وأن زواجها من الشيخ محمد كان لتسخيرها للعمل في البيت الكبير، وخدمة أم هاشم.

حمى وطيس الضرب من سلفتيها، تصرخ سنية مستنجدة بحماتها أم هاشم التي تصحو من غفوتها، لتوسع سنية ضرباً على ما فعلته أثناء نومها.

مع استمرار الضرب، تحاول سنية أن تدافع عن نفسها، لتخرج من يدها لطمة قوية تسكن مباشرة على صدغ أم هاشم، لتترنح المرأة العجوز.

وتبدأ حرب شوارع داخل البيت الكبير، تطرح محاسن وفتوحه سنية أرضاً لتكيل لها أم هاشم الضرب على بطنها، بقدميها تارة، وبشباشب البيت تارة أخرى.

تفقد سنية الوعي، وبقليل من رش الماء على وجهها، تفيق فتأخذ المزيد من الضرب جراء التعدي على حماتها أم هاشم، تحاول الهروب والانسحاب من ساحة المعركة، بعد أن تمكن منها الثلاثة وأشبعنها ضرباً وركلاً.

عند محاولتها الوقوف والهرب منهن، تجد الدماء تسيل بين قدميها، بعد عدة انقباضات في رحمها، يخرج جنينها إلى الأرض صغيرا لا يزيد عن حجم فأر صغير بدون ذيل محاطاً بكيس دموي تشعر أن به حياة!.

دقائق معدودة، تنظر خلالها سنية إلى صغير الفأر، وسط كومة من الدم، لحظات ويموت ثم يفقد حركته، لتصرخ سنية صراخاً يتجمع حوله القاصي والداني من أهل القرية!

****

يحضرالشيخ محمد، ولا يعلم ما يحدث، ويجد الدم على الأرض، وصغير الفأر جثة هامدة، تؤكد أم هاشم له بأن سنية

قفزت من فوق السلم مرات متعددة لإجهاض نفسها، ومنعه من أن يكون أب.

يكيل لها الشيخ محمد المزيد من الضرب، وتحت تهديد أم هاشم له بالطرد من البيت الكبير، يقوم الشيخ محمد برمي يمين الطلاق على سنية، وأمام المجتمعين من الجيران وأهل القرية، تقوم محاسن وفتوحه بطردها من البيت.

تخرج سنية في شوارع قريتها تصرخ، والدماء لا زالت تسيل منها، ووجهها منتفخ من أثر الضرب بوحشية، يجري خلفها بعض الأطفال، يرمونها بالحجارة مرددين " المجنونة أهي ".

****

(٤)

على أطراف القرية، وبعد أن يبتعد عنها الأطفال وتهرب من حجارتهم الصغيرة، يجدها سائق سيارة نقل تصرخ على يمين الطريق، يستوقفه مظهرها فيأخذها معه علها تتوقف عن الصراخ ويفهم منها ما أصابها.

مع صراخها المستمر والنزيف الذي لم يهدأ، يقوم السائق بإنزالها عند مدخل قريتنا في حالة صحية سيئة، ونزيف لا ينقطع، لتجد ترعة بلدتنا!.

بين أغصان البوص والسيسبان، تختبئ وتنام أول ليلة بقريتنا، عند دخول شمس الصباح الباكر، تصحو سنية فتجد نفسها تصرخ دون وعي، يسمعها أفراد الكمين المتواجدين أعلى الكوبري، يهبط بعض المجندين لاستطلاع الأمر، عند عودتهم لإخبار الضابط بما وجدوه وأنها مجذوبة، ربما تنام الليل على ضفاف الترعة، وربما تحتمي من اللصوص وقطاع الطرق، بالبيات تحت الكوبري وفي حراسة الكمين!

****

يأتي المساء ويعلو صوت صراخها، يحضرها الضابط المسئول عن تأمين الكمين، فيجدها جائعة، يحاول أن يعطيها بعض الطعام لتأكله، لكنها ترفضه، وعند لمسه لها يجد جلدها شديد السخونة وتعاني من حُمّى شديدة.

يتصل الضابط بالإسعاف لتأخذها إلى مستشفى الحميات، ترقد هناك أكثر من أسبوعين بين الحياة والموت، ثم تخرج دون معرفة شخصيتها ليتم تسليمها إلى قسم الشرطة.

بعد أيام وأسابيع من التحريات، ومع ارتفاع ضجيج صراخها الذي لا ينقطع ليلاً ونهاراً، يتم صرفها من مركز الشرطة فتعود لترقد أسفل الكوبري بجوار كمين الشرطة.

****

مرت السنون على سنية، وهي فاقدة للنطق غير مدركة، لما حولها، لا تستطيع الكلام، يتساءل أهل القرية عن أصلها ومن أين أتت؟ وماذا حل بها وأفقدها النطق؟!

ربما الحمى الشديدة التي أبقتها بمستشفى الحميات لعدة أسابيع.

تستخدم لسانها صارخة، عند هجوم الأطفال عليها أو ضربها بالطوب والحجارة عند خروجها من مخبئها أسفل الكمين.

باتت سنية أو المجذوبة كما أطلق عليها أهل قريتنا، معروفة لأفراد الكمين الذين يجودون عليها ببعض الطعام والماء، مع

توصية الضباط لزملائهم الجدد بأن يعطفوا عليها، وعند استلام وتسلم الكمين من مجموعة النهار إلى مجموعة الليل، يتم تسليم سنية ضمن مهمات الكمين.

طالت إقامة المجذوبة تحت الكوبري، وأصبحت إحدى علامات كوبري الكمين، وكان الكثير من أهل القرية يحضرون لها الطعام والشراب، خاصة في شهر رمضان المعظم، وبعض السيدات يَجُدْنَ عليها بملابسهن القديمة.

هادئة هي المجذوبة، لا تغادر مخبأها تحت الكوبري، تستخدم مياه الترعة، إن لم تجد ماء تشربه، وتأكل ما يعطيه لها أفراد الكمين الذين يقومون باستلام الطعام من أهل الخير من قريتنا، يقومون بتسليمه لسنية، أحيانا ومع طول انتظارهم في الكمين يتقاسمون الطعام معها.

****

ليالي الشتاء الباردة حضرت بقوة، أثناء انتصاف الليل وتواجد الجنود والضابط النوبتجي بالكمين، يشتد صراخ سنية، فيرسل الضابط أحد المجندين لإحضارها خوفا من حدوث مكروه لها، يجدها الضابط في حالة سيئة تتعذب من ألم شديد ببطنها، عن طريق جهاز اللاسلكي يتصل بسيارة إسعاف تنقلها إلى المستشفى الأميري.

****

تظل سنية بالمستشفى لأيام، لكنها تظل في ذاكرة الأطباء والتمريض وإدارة المستشفى سنوات طويلة، حيث تبين بعد نزولها من سيارة الإسعاف والكشف عليها أن سنية في حالة ولادة، يقوم أطباء المستشفى بجراحة قيصرية سريعة، لتضع طفلها الذي يُعتنى به من المستشفى كلها، ويتم حجزه بقسم الأطفال المبتسرين، وفي الحضّانة لعدة أسابيع.

تُحْضِر ممرضات المستشفى سنية إلى قسم الحضّانات لإرضاع ابنها من صدرها، والاستفادة من لبن السرسوب الذي يرفع مناعة الطفل.

ترفض سنية إرضاعه أو إمساكه، وتصرخ عند إحضاره لها، فتقوم إدارة المستشفى بإعادته لقسم المبتسرين، يتربى داخل القسم مع تبرعات الأمهات بإرضاعه والتبرع بملابس نظيفة له.

عند بلوغه عمر الأربعة شهور، يصبح وجوده داخل قسم المبتسرين غير قانوني، ويهدد كل العاملين بالقسم والمستشفى للمساءلة!.

****

يتم تسليم الطفل إلى مركزالشرطة الذي يسلمه بدوره إلى دار رعاية الايتام التابعة للشئون الاجتماعية في المدينة الكبيرة، ويغادر قريتنا، ويقوم العاملون بالشئون الاجتماعية باختيار اسم ثلاثي له.

في دار رعاية الايتام يعيش سعيد الأشهر الأولى من حياته، ربما يكون سعيداً وهو الطفل الذي لا يعرف أباه ولا أمه، وأمه لم تعرفه ولا تعرف نفسها أيضاً، وتبقى المجذوبة تحت الكوبري والقرية تتساءل مَن يكون أبوه؟!

****

(٥)

بين الطفولة الحزينة داخل دار الأيتام، وسط المشاحنات مع الأطفال الأكبر سناً، تمر السنون على سعيد بدار الأيتام.

يحصل على شهادة الإعدادية بصعوبة بالغة، وسط مضايقات اليتامى الأكبر سنا، مع عدم قدرته على النوم العميق أثناء الليل، بعد إغلاق باب العنبر وخلود المشرف للنوم، تحضر شياطين اليتامى ومجهولي النسب لتستغل دخول الأطفال الصغار في النوم، وتبدأ معهم محاولات التحرش بداية من تكميم الأفواه ومروراً بخلع ملابس الطفل.

يتحرك الليل بطيئاً وسعيد مستيقظا خوفا من مصير محتوم، إذا أُغمضت عيناه وغلبها النوم، يؤثر ذلك على قدرته على التحصيل صباحا في المدرسة، ينتهي به قطار التعليم في شهادة الإعدادية.

تنتشر أخبار الليل الحزين على أطفال الدار الصغار، تقوم إدارة الدار باستبدال مشرفي الليل، مع اتخاذ قرار باستبعاد اليتامى الذين تجاوز عمرهم الخامسة عشر، ومنحهم فرص العمل في الورش، والمطاعم، والمحلات التجارية، والمخابز، وخلافه..

استطاعت دار الأيتام توفير فرص عمل جيدة للأطفال الذين تجاوز عمرهم الخامسة عشر وتسليم بعضهم إلى أهليته؛ لاستكمال تعليمه أو تشغيله.

تمكن بعض أقران وزملاء سعيد في الدار من العيش بالحلال، والعمل بصيدليات، وورش خراطة، وبمزارع الطيور، لكن الكثير منهم عادوا للشوارع مجرمين وسارقين ومروجين للمخدرات.

****

يتم سعيد الثامنة عشره من عمره، وهو في حيرة من أمره، فأثناء وجوده في الدار، علم من بعض معلميه أن مجهول النسب لا يُطلب في الخدمة العسكرية.

يذهب إلى مركز الشرطة ويتسلم استماره (٦) جند، يدخل إلى منطقة التجنيد ويتسلم العديد من الأوراق، يتم ملؤها ببيانات عن طريق بعض المجندين الإداريين داخل منطقة التجنيد.

يسجل سعيد اسمه طبقا للاسم الذي اختارته له الشئون الاجتماعية ودار الأيتام، لكن توجد خانات كثيرة احتار فيها المجند الإداري وعجز عن كتابتها، منها اسم الأم والأب ومكان الولادة، وأسماء الأجداد وخلافه.

أعيت الحيرة المجند، فيأخذ سعيدا إلى الضابط المسئول عن السجلات، لاستكمال بيانات سعيد المفقودة!

****

تم فرز سعيد والكشف الطبي عليه، ليجند ضمن قوات الأمن، ويُلحَق بقوة الكمين بقريتنا والتي ترقد أمه تحته.

يقوم باستلام الخدمة، وبعد تسليم نفسه إلى ضابط الكمين، يقوم زملاؤه بإخباره بنظام الكمين ونوبات الحراسة ومخزن

السلاح، كما يتنبه عليه من الضابط بمراعاة المجذوبة أسفل الكوبري، حيث أنها تعد من العهد التي يحافظ عليها أفراد الكمين.

****

أسابيع وأسابيع وسعيد يقوم بتأمين الكمين، وفي وقت الراحة، يذهب للسيدة المجذوبة أسفل الكوبري، وتأنس له لرعايته لها وإحضاره بعض الطعام والماء، وأحيانا زجاجة مياه غازية والتي تحبها كثيرا!.

امتد العمر بسنية لترى ابنها شاباً قوياً، يحمل سلاحه، يحافظ على القانون ويدافع عن حقوق المظلومين ويطعم المرأة المجذوبة أسفل الكوبري.

****

كعادته يوميا في المساء، وبعد استلامه الخدمة بالكمين، يستأذن من الضابط ليهبط للاطمئنان على المجذوبة، فيجدها قد أسلمت روحها إلى بارئها.

تُنقَل بسيارة إسعاف إلى المستشفى الأميري، وتُغسل بمشرحة المستشفى، ويتطوع أهل قريتنا بكل مصاريف الغُسل والكفن والدفن بمقبرة عائلة الحوايتة.

يقترح بعض الشباب من أهل الخير إقامة ليلة عزاء للمجذوبة في الساحة، كما تكفل أبناء عائلة الحوايتة بمصاريف الغُسل والكفن والدفن بمقابرهم.

يعلن أكابر عائلة السعدنية نصب ليلة عزاء للمجذوبة مع تكفلهم بمصاريف الليلة كاملة، وإحضار مقرئ من المدينة لإحياء الليلة .

****

يقرأ المقرئون ما تيسر من آيات الذكر الحكيم، وأهالي القرية يستمعون في الساحة، يحدثون بعضهم بعضاً عن جلوسهم في عزاء المجذوبة التي لايعرفها أحد من أهل القرية، ولا نعرف حتى اسمها أو من أي البلاد أتت إلينا.

لكنها عاشت سنين طويلة في بلدتنا لم تمس أحداً بسوء، بل مسها السوء من أحد الأشرار، الذي قام باغتصابها مرات ومرات حتى حملت منه وولدت طفلاً، لا يعلم أحد في القرية مصيره.

على باب الساحة وأثناء تلاوة القرآن، يحضر ضباط الكمين بسيارة شرطة، لأداء واجب العزاء في المجذوبة، ويهبط سعيد من سيارة الشرطة فيجلس في الساحة وسط المعزين، عند انتهاء المقرئ من قراءة جزء من آيات الذكر الحكيم، ينهض الضباط ومعهم سعيد بمغادرة الساحة.

****

رؤية نقدية بقلم الناقد والباحث في الأدب العربى والعالمى / د خير سليم بعنوان: آليات السرد بين تعرية الواقع ورفضه وبين الفانتازيا فى حكايا الساحة عند خالد وشاحى

يقدم - لنا - الكاتب خمس قصص تتسم بالقدرة على صياغة الواقع وتعريته - بل ورفضه تماما بكل مافيه - للعيش فى الفانتازيا والخيال. يصنع ذلك بطريقة تدهش المتلقى وفى نفس الوقت لا تلغى فكره.

كل القصص فى هذه المجموعة جعل الرابط الأساسى لها هو موت أبطالها واجترار المعزين فى الساحة - (مكان إقامة العزاء) - لسيرة وحياة هذه الشخصيات السابقة.

الكاتب يقوم بالبناء المحكم لأعماله والتخطيط الهندسى لها، متلمسا هذه الشخصيات من الواقع كما كان يفعل يوسف إدريس ونجيب محفوظ، ليقولبها بما يتناسب وأحداث عمله الفنى، ولا يكتفى كاتبنا بهذا التخطيط المسبق للشخصيات والأحداث، بل يضع لهم فى الصفحة المقابلة المشاعر ومجموعة التفاعلات بين هذه الشخصيات بل والسلوك الذى يؤدى لهذه النتائج النهائية التى يرصدها الكاتب بكل دقة - لذا تأتى أعماله محكمة البناء، وتتميز بالدقة والبناء المحكم الذى لا تشوبه شائبة نتيجة هذا التخطيط والبناء المسبق.

الكاتب لايكتفى بذلك بل يقوم بالتدخل فى شخصية المتلقى نفسه وإعدادها من جديد، بطريقة تجعله يتقبل كل ما يقدمه الكاتب من أفكار وأحداث، مهما كانت غرابتها وعدم منطقيتها وبعدها عن الواقع، وهو فى نفس الوقت يساعد المتلقى أو القارئ فى تكوين وعيه الإيجابى تجاه الأحداث، مما يخلق المعادلة

الصعبة فى تحليل العمل والأحداث فى ذهن القارئ لنقد المجتمع وتعريته ورفض ما فيه من سلبيات.
مايعرضه الكاتب فى الفانتازيا الموجودة فى أعماله أو مايسمى بالواقعية السحرية ونتناول فى هذا الموضع آليات السرد والتنقل بين هذه الأحداث سواء كانت خيالية أو حقيقية، والتى اتبعها الكاتب فى عرضه لمجموعته القصصية (حكايا الساحة)

آليات السرد - بمعنى طرق الحكى التى استخدمها الكاتب لعرض أفكاره وتفكيك الواقع لصياغته من جديد مشوبا بالخيال - فى نظام تطوير القصة من حبكة وتشويق، نجد أن الكاتب استخدم ثلاث طرق فى سرده لهذه المجموعة

الطريقة الأولى : السرد المتسلسل للأحداث بطريقة تصاعدية ليصب فى النهاية فى نهاية القصة التى اختارها المؤلف ، نجد ثلاثة نماذج لذلك.

قصة السرداب: أولى هذه القصص والتى تصف طمع الإنسان وأنانيته لأعلى درجة، فنجد حسن أبو يوسف بطل القصة، يريد أن يضحى ببنته بهية ومن قبلها زوجته، من أجل الكنز الموجود خلف السدة فى نهاية السرداب الذى أشار به الشيخ إبراهيم النصاب القادم من صان الحجر بالشرقية من أجل إيهام الناس بوجود كنز فى منزلهم ليقضي عدة أيام يأكل ويشرب، ويختار ضحاياه بطريقة

عشوائية، حتى فى اختياره لمكان الحفر بطريقة عشوائية أيضا، موهماً الجميع بأنه مدد وإلهام إلهى.
وعندما يتبين له قرب اكتشافه، يقتنص الفرصة لسرقة بعض الأشياء ويهرب.

فى هذه القصة يفاجأ بظهور سرداب حقيقى، ولأنه دجال لايعرف فتح السدة فيهرب بعد سرقته لمصاغ ومجوهرات نجية زوجة حسن أبو يوسف بعد فشله فى اغتصابها، وجشع حسن أبو يوسف يجعله يبحث عن شخص آخر لفتح السدة، ليعثر على الشيخ فتوح بكفر الشيخ، ويتضح أنه أنانى ومستغل بعد ذلك ليحصل على جاموسة حسن، بعد فشلهم جميعا فى الحصول على شخص يقومون بذبحه لإرضاء خادم السدة - فقد حاول حسن بالإيعاز إلى أخيه سعيد بذبح بهية ابنة حسن، ويقوم سعيد بتهريبها من عينى حسن وتهريبها إلى أمها. يحاول حسن بعد ذلك هدم السدة رغم علمه بأنها مهلكة. لطموحه وجشعه ورغبته فى الثراء السريع.

فى قصة (الجُودَه) أيضاً نجد البناء المتسلسل للسرد فى رصد الأحداث، حيث يبدأ البداية التقليدية للأحداث والشخصيات، فيقدم حسانى الذى ينتمي لعائلة الفاوية وميراثه للثأر الذى تسبب فيه والده قبل هروبه بقتل واحد من عائلة (أبو العطا) والذى تسبب بقتل إخوته على يد عائلة (أبو العطا) وإصابته بجروح

خطيرة، وبالتالى وجب عليه بالثأر لمقتل إخوته، بعد أن تمكن من هروبه إلى الشط الثانى عند الحاجة أنيسة، والتى قامت بعلاجه بطريقة بدائية بوضع السمن البلدى على جروحه، ويقوم بنصب كمين وقتل أحد فقراء عائلة (أبو العطا) ويتوالى قتله لأفراد كثيرين من عائلة أبو العطا وعندما تتقدم عائلة أبو العطا بقتل ابن عمه، يقوم بالتنكر فى زى منتقبة، ويتمكن من قتل مجموعة من فرح أقامته عائلة (أبو العطا) بعد ركوبه موتوسيكل خلف أحد أقاربه. ثم يطالبه أقاربه بتقديم نفسه وكفنه (جُودَه).

فى القصة الثالثة التى تعتمد على السرد التقليد ى المتسلسل قصة (تحت الكوبرى) والتى تبدأ بزواج والد سنيه من امرأة أخرى بعد وفاة أمها، هذه المرأة التى تعاملها معاملة غير إنسانية والتى تتملكها الغيرة منها بعد أن قامت هذه المرأة بالتخلص من زوجها (والد الفتاة) عن طريق عشيقها قشر الذى دهسه بالجرار بخدعة مدبرة ويعيش معها فى ستار أنه أخوها فى الرضاعة، وتقوم بالتخلص من الفتاة بتزويجها من الشيخ محمد البركة، ويعاملنها أخوات محمد البركة وأمه معاملة غير آدمية أيضا، ويقمن بإجهاضها بعد أن قامت بإعارة أنبوبة بوتاجاز لصاحبتها، وتصيبها صدمة نفسية كبيرة، أفقدتها توازنها النفسي، لتعيش متشردة تحت الكوبرى بجوار كمين شرطة، حتى يغرر بها معدوم الضمير والإنسانية وتكون نتيجة لذلك طفل مجهول الهوية، يتتبعه

المؤلف حتى حصوله على شهادة متوسطة ويخدم فى الجيش لتأتي خدمته فى نفس الكمين بجوار الكوبري الذى تعيش تحته. ولا يعرف أنها أمه، وبعد أن تموت وتقوم إحدى العائلتين فى البلدة بإقامة العزاء لها يقوم هو مع مجموعةمن أفراد الكمين والضابط بتأدية واجب العزاء، والمفارقة أنه لا يدرى صلة القرابة بينه وبينها.

الطريقة الثانية: السرد عن طريق الفلاش باك، يبدأ فى القصة من منتصفها أو قرب آخرها.

ففى قصة (الصياد) يبدأ من منتصف القصة بعرض البطل وهو صالح سنوسي والذى يحكى له والده وهو على فراش المرض عن أصله الحقيقى وأن أمه كائن بحرى من سكان البحر وكيف كانت تملأ شبكته بالأسماك والخير الوفير، ثثم يتوفى سنوسي والد صالح ليكمل صالح حياته بعد ذلك ويكمل المؤلف بعد ذلك عن السرد المتسلسل والمتنامى للأحداث، حتى اختفاء صالح فى البحر، وإقامة واجب العزاء فى الساحة، واجترار المعزين لسيرة حياته،وخلقته المشوهة وبنيانه الجسمانى الخليط بين البشر والكائنات البحرية مما جعل زوجته (عفاف) تنفر منه لتركيبه الجسمانى الشاذ وتساومه على أملاكه مقابل الحفاظ على سره.

وفى قصة (أرض العمدة) يبدأ أيضاً من الثلث الأخير من القصة من عرض بطل القصة (أبو زيد) ابن العمدة الأخير الذى لم يولد بعد، ثم يعود للبداية وحياة العمدة منصور سعد والده المستهتر،

والذى فقد لقب العمدية، ويفقد أرضه مقابل شهواته فى الطعام، والعزومات وإدمانه للخمر، وموته بسببها أيضا، ثم يأتى دور أبو زيد الذى يحاول استرداد أرضه، ولكن خانه التوفيق فلجأ إلى طرق غير قانونية، بالتهديد ثم الاحتيال لطرد أنور بائع الخمور من البلدة، ثم الإجرام بالاتفاق مع قرشي صديقه، بخطف ابنى نبوى أبو الحمد وأبو الحسن، ويقبض عليه ويسجن ويصاب بالفشل الكلوى فى السجن، ليتمكن أخوانه الضابطين من نقله إلى المستشفى ويموت هناك ليجتر المعزون سيرته .

الطريقة الثالثة: السرد المتسلسل مع إيقاف الزمن لعرض الأحداث وتكملة الشخصيات ثم العودة من جديد لاستئناف السرد متخللا ذلك بالمفارقات وأحيانا بالمتقابلات وكذلك بعناصر التأكيد على الأحداث.

ففى قصة (الصياد) تقف الأحداث عند اعتراف سنوسى لابنه صالح بأن التى ربته لم تكن تنجب وأنها عقيم واحضر لها صغيراً ففرحت به وقامت على تربيته وأحبته كابنها تماما لدرجة أنها أول من سقته شربة بيدها، وأن أمه الحقيقية إحدى سكان البحر من القشريات والتى تزوجها اعترافا بجميلها وفضلها عليه عندما كانت تملأ شبكته بالأسماك. وكيف أنها ولدت له ثلاثة توائم، أكلت الكلاب أخويه، فلم يتبق إلا هو، لنعرف بعد ذلك أنه ورث من صفات أمه البحريه لذا أكلت الحيوانات أخويه لشبههما بالأسماك، كما ورث من أبيه الشكل البشرى. ثم يستأنف الكاتب

بطريقة الراوى العليم باقى القصة، لنجد المفارقة بموته فى البحر أو اختفائه فيه، وهو الكائن البحرى، الذى يرث نصف صفاته من البحر.

وفى قصة (السرداب) ، نجده يتوقف لعرض الشخصيات ويكمل صفاتها، ثم يعود ليكمل السرد بطريقة تقليدية لتنامي الأحداث وتطورها حتى النهاية الكامنة فى ذهن الكاتب.

وفى (الجودة) نجد الكاتب يتوقف لعرض بعض المواقف والشخصيات ليأتى فى النهاية بالمفارقة وهى موت حسانى تحت عجلات القطار بعد هروبه من عائلة (أبو العطا)، فلا يموت من الثأر ولا من الجروح التى أصيب بها ولا من موقف الجُودَه أثناء تقديم نفسه لعائلة (أبو العطا)، بل يموت موتة قدرية.

فى قصة (السرداب) يصنع الكاتب المقابلات بين الشخصيات المختلفة.

بين حسن الذى يرغب فى التضحية بأى شىء وأخيه سعيد الذى يحافظ على عائلة أخيه وفى نفس الوقت يحترم أخيه كما أنه يحافظ على الأرض والعرض، كما يصنع مقابلة بين النصاب الشيخ إبراهيم والنصاب الشيخ فتوح، فيحصل الأول على مجوهرات نجية زوجة حسن أبو يوسف بينما يحصل الثانى على الجاموسة

وفى قصة تحت (الكوبرى)، والتى تحكى ملحمة إنسانية مؤلمة تتسم بالميلودراما، بطل القصة يقوم بواجب العزاء فى أمه دون أن يعرف أنها أمه، وأيضا المقابلة بين ابنها الأول الذى نزل سقطاً وبسببه حدث لها الاضطراب النفسى، بينما تنجب ابنها الثانى سليما معافى لكنها لا تتعرف عليه، كما يرسم الكاتب الشرطة فى هذه القصة فى دور إنسانى رائع، فيذكر فى ثنايا هذه القصة، بأن هذه المجذوبة أصبحت من ضمن العهدة التى تسلم للنوبتجية،

وفى قصة (أرض العمدة)، نجد الكثير من المفارقات والمقابلات وطريقة السرد المتقطع والتى يقف فيها الكاتب لتكملة الشخصيات أو الأحداث، فنجد يقف لعرض باقى أبناء العمدة وكيف نجحت زوجة العمدة فى تربيتهم، كما يقف لعرض مساومات نبوى فى بيع الطيور لزوجة العمدة حسنات ومساومات أنور فى بيع الخمور للعمدة نفسه، وكذلك مَساومتهما للحصول على الأرض مقابل بيعهما ورفضهما الحصول على المال؛ كما يعرض الكاتب المفارقة بين (أبوزيد) الذى لم يحصل إلا على شهادةمتوسطة (دبلوم التجارة) ويتم التحايل هروبا من التجنيد، بينما أخويه مرتضى وفؤاد ضابطا شرطة وأختيه فوقية وقدرية تتزوجان زواجا موفقا من أبناء عموماتهما، كما يصنع أيضا المفارقات فى موت ابن العمدة أبو زيد الذى يموت بالمرض

(بالفشل الكلوى) رغم إجرامه وحياة المجون والشقاوة التى انتهجها أبو زيد.

وهذه نقطة فى بحر لأن الكاتب ثرى جدا وواعي بقضاياه، حيث يقوم بتوظيف الفانتازيا والأساليب السردية المختلفة التى ذكرناها فى تعرية الواقع وكشفه أمام القارئ ليقوما والقارئ فى بنائه من جديد.

والله ولى التوفيق

د/خير سليم

ناقد واديب

المحتويات

السرداب ٩
(١) ١٠
(٢) ٢٦
(٣) ٤٠
(٤) ٥٠
الجُودَة ٥٧
(١) ٥٨
(٢) ٦٤
(٣) ٧٠
الصياد ٧٧
(١) ٧٨
(٢) ٨٩
(٣) ٩٣
(٤) ١٠١

أرض العمدة..... ١٠٧
(١) ١٠٨
(٢) ١١٣
(٣) ١١٩
(٤) ١٢٥
(٥) ١٢٩
(٦) ١٣٥
تحت الكوبري ١٤١
(١) ١٤٢
(٢) ١٤٨
(٣) ١٥١
(٤) ١٥٨
(٥) ١٦٣
رؤية نقدية بقلم الناقد والباحث في الأدب العربى والعالمى / د خير سليم بعنوان: آليات السرد بين تعرية الواقع ورفضه وبين الفانتازيا فى حكايا الساحة عند خالد وشاحى..... ١٦٧